من بلاغة متشابه النظم القرآني في كتاب " نتائج الفكر في النحو" للسهيلي

إعداد الدكتور/

محمود ياسين عوض سيد شناوي

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

من بلاغة متشابه النظم القرآني في كتاب " نتائج الفكر في النحو" للسهيلي

إعداد

الدكتور/ محمود ياسين عوض سيد شناوي

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة

البريد الإلكتروني Mhahoh@gmail.com

الملخص :

هذه دراسة في بلاغة متشابه النظم القرآني ؛ في كتاب " نتائج الفكر" للسهيلي ، تهدف إلى إبراز الأسرار البلاغية في تلك الآيات التي تشابهت في نظمها ، ثم اختلفت في وجه من وجوه النظم ؛ كالحذف والإثبات ، والتقديم والتأخير ،والتعريف والتنكير ، والإفراد والجمع ....، بذكر قول السهيلي، ومناقشته في ضوء ما قاله أهل العلم ؛ لنقف على بعض مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، وتأتي أهمية الدراسة من ارتباطها بجانب من جوانب إعجاز القرآن، ثم ما تمتع به السهيلي من موهبة فذة في إدراك أسرار النظم، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الكلمات المفتاحية: "متشابه النظم "، " نتائج الفكر"، "السهيلي "

From the eloquence of the Qur'anic systems in the book "The Results of Thought in Grammar", for Sahili

Dr / Mahmoud Yassen Awad Said Shennawy

Teacher of rhetoric and criticism in the Faculty of Arabic Language in Cairo.

E.mail / Mhahoh@gmail.com

Research summary

This is a study at rhetoric similar to koranic systems in the book "Nataaeg al fekr " to his author Alsuhaily.

It aims to highlight the rhetorical secrets in those verses that are similar in their systems,then differed in the face of systems such as deletion and proof ,submission and delay,definition and denial,singular and plural...,as said Suhaili and scholars that aims to learn some aspects of the miracle of the Holly Quran.

The importance of the study comes from its association with one of the Holly Quran and then what it characterized by Suhaili talent in recognizing the secrets of the koranic systems.

Key words "similar systems", "Nataaeg al fekr "," Alsuhaily".

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فهذه دراسة في بلاغة متشابه النظم القرآني ؛ من خلال ما جاء في كتاب " نتائج الفكر" لأبي القاسم بن عبد الله السهيلي المتوفى سنة ثمان وخمسمائة للهجرة ٥٠٨هـ .والسهيلي نحويٌ مشهور ، وكتابه أصلٌ من أصول النحو ، غيرأن من يقرأ فيه يجد منهجا مختلفا عن منهج النحاة في مؤلفاتهم ؛ حيث إنّ النحاة شُغلوا بالقاعدة والاستدلال عليها من القرآن أو الحديث أوالشعر ، دون إشارة إلى شيء من بلاغة هذه النصوص إلا في القليل النادر ، أما كتاب السهيلي فله طبع خاص ؛ حيث تشعر بأنه جامع للنحو والتفسير والبلاغة ...إلخ ، فكثيرا ما يقف عند الآية ويستخرج ما فيها من مسائل بلاغية ، ويوضح أثر ذلك على النظم .

وهناك جانب مهم برع فيه السهيلي ، ولا يجارى فيه ؛ وذلك في حديثه عن متشابه النظم القرآني؛ حيث يعرض للآيات التي تشابهت في نظمها ، ثم اختلفت في وجه من الوجوه ، ثم يبيّن لك سرّ تلك المخالفة على نحو يشهد بنبوغه في هذا الجانب القرآني ، فلا تدري أكتاب نحوٍ قرآت؟ أم في البلاغة والإعجاز طالعت ؟! حقا إنه كتاب فريد ؛ حيث يجعل النحو سبيلا للوصول إلى الإعجاز .

وقد اهتم أهل العلم بمتشابه النظم القرآني اهتماما بالغا ؛ حيث إنه مظهر من مظاهر الإعجاز، وكثرت المؤلفات في هذا الجانب من العلم ، وأفردوا له كتبا ؛ من ذلك "**درة التنزيل وغرة التأويل**" للخطيب **الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ)** ،و " الْبُرْهَان فِي متشابه الْقُرْآن" لبرهان الدين الكرماني،

(المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) ، و "**ملاك التأويل**" لابن الزبير الغرناطي (المتوفى : ٧٠٨هـ)، و"كشف المعانى فى المتشابه من المثانى" لابن جماعة (المتوفى ٧٣٣ هـ)، وغير ذلك كثير .

أقول : ليس غريبا أن ترى تلك المؤلفات السابقة ؛ فأصحابها شُغلوا بالدراسات القرآنية ؛ فجاءت أعمالهم خالصة في هذا الجانب العلمي ، وإنما الغريب أن تجد في كتاب نحوٍ دراسة لكثير من مسائل متشابه النظم القرآني ، في ثوب لم يُسبق إليه ، بل ستكشف الدراسة أن كثيرا من أهل العلم الذين جاءت مؤلفاتهم في متشابه النظم قد أخذوا من السهيلي ؛ مما يكشف لنا عن أهمية كتابه " نتائج الفكر ".

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة ، وتمهيد ، ثم عرض لمسائل متشابه النظم في كتاب " نتائج الفكر " ، وخاتمة ، وثبت للمصادر والمراجع.

ففي المقدمة بيّنت أهمية الموضوع ومنهجه ، وفي التمهيد تحدثت عن السهيلي وكتابه ، والدراسات السابقة ، ومعنى متشابه النظم القرآني وأهمية دراسته ، ثم درست المسائل التي تشابهت في نظمها ؛ مبيّنا رأي السهيلي، ثم مناقشا إياه في ضوء ما قاله أهل العلم ، ثم خاتمة ، بيّنت فيها أهم ما وصل إليه البحث .

وبعد فإني أسأل الله . عز وجل . أن يغفر ذنبي ، وأن يستر عيبي ، وأن يسامحني على قول اجتهدت فيه فلم أصل إلى الصواب ، وصل اللهم وسلم على الحبيب محمد وآله وصحبه وسلم .

الباحث/ محمود ياسين عوض شناوي

تمهيد: وفيه مطلبان.

الأول : التعريف بالسهيلي وكتابه، والدراسات السابقة.

الثاني: معنى متشابه النظم القرآني وأهمية دراسته.

المطلب الأول : التعريف بالسهيلي وكتابه

اسمه و مولده:

عَبْد الرَّحْمَن بن عَبْد الله بن أَحْمد بن أَبِي الْحسن أصبغَ بن حُسَيْن بن سعدون بن رضوَان بن فتوح الْخَثْعَمِي السُّهيْلي(١) من أهل مالقة(٢) ، النحويّ اللغويّ الأخباريّ ، يكنى أَبَا زيد وَأَبا الْقَاسِم وَأَبا الْحَسَن.(٣)

واختلف أهل العلم في مولده ؛ قال ابن الأبار البلنسي :" ومولده سنة ٥٠٩"(٤)، وقال ابن خلكان :" ومولده سنة ثمان وخمسمائة بمدينة مالقة."(٥) .أما وفاته فليست محل خلاف؛ حيث توفي بمراكش سحر لَيْلَة الْخَمِيس ٢٥ من شعْبَان سنة ٥٨١هـ وَدفن لصَلَاة الظّهْر .

حياته :

(١) نسبة إلى سهيل ، وسُهَيْلٌ: بلفظ الكوكب المعروف، وهو مصغر سهل، جبل سهيل: بالأندلس من أعمال ريّة، لا يرى سهيل في شيء من أعمال الأندلس إلّا فيه. ووادي سهيل أيضا: بالأندلس من كورة مالقة فيه قرى، من إحدى هذه القرى عبد الرحمن السهيلي.معجم البلدان ٢٩١/٣

(٢)مَالَقَةُ: بفتح اللام والقاف، كلمة عجمية: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية،وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم.السابق ٤٣/٥

(٣) ينظر : إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٦٢/٢، التكملة لكتاب الصلة٣٣/٣

(٤) التكملة ٣٣/٣

(٥)وفيات الأعيان ٢٤٤/٣

عاش . رحمه الله . في الفترة بين عام ٥٠٨-٥٨١ هـ ، وهي فترة شهدت فيها الأندلس نهضة علمية كبيرة، كان السهيلي أحد أعلامها . وذكر من ترجم له أنه قد كف بَصَره بِمَاء نزل بِهِ، وَهُوَ ابْن سبع عشرَة سنة، أَو نَحْوهَا وَكَانَ عَالما بالقراءات واللغات والعربية وضروب الْآدَاب، حَافِظًا للسير وَالْأَخْبَار والأنساب ،إِمَامًا فِي الْحِفْظ وَالذكر والإدراك ، مقدما فِي الْفَهم والفطنة والذكاء لَهُ حَظّ وافر من قرض الشّعْر، وَالتَّصَرُّف فِي فنون الْعلم ، يغلب عَلَيْهِ علم الْعَرَبيَّة والغريب ، وتصدر للإقراء والتدريس وإسماع الحَدِيث"[(١)]، وَكَانَ بِبَلَدِهِ يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حَتَّى نما خَبره إِلَى صَاحب مراكش فَطَلَبه إِلَيْهَا وَأحسن إِلَيْهِ وَأَقْبل بِوَجْهِهِ كل الإقبال عَلَيْهِ وَأَقَام بهَا نَحْو ثَلَاثَة أَعْوَام، وَله أشعار كَثِيرَة ؛ منها قوله في المناجاة :

يَا من يرى مَا فِي الضَّمِير وَيسمع ... أَنْت الْمعد لكل مَا يتَوَقَّع

يَا من يُرْجَى للشدائد كلهَا ... يَا من إِلَيْهِ المشتكى والمفزع

يَا من خَزَائِن ملكه فِي قَول كن ... أمنن فَإِن الْخَيْر عنْدك أجمع

مَا لي سوى فقري إِلَيْك وَسِيلَة ... فبالافتقار إِلَيْك فقري أدفَع

مَا لي سوى قرعي لبابك حِيلَة ... فلئن رددت فَأي بَاب أقرع

وَمن الَّذِي أدْعُو وأهتف باسمه ... إِن كَانَ فضلك عَن فقيرك يمْنَع

حاشا لمجدك أن تقنط عَاصِيا ... وَالْفضل أجزل والمواهب أوسع

ثمَّ الصَّلَاة على النَّبِي وَآله ... خير الْأَنَام وَمن بِهِ يستشفع

(١) ينظر : التكملة ٣٣/٣، إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٦٢/٢

قَالَ ابْن دحْيَة : مَا سَأَلَ الله بهَا حَاجَة إِلَّا أعطَاهُ إِيَّاهَا وَكَذَلِكَ من اسْتعْمل إنشادها.(١)

وذكر أهل العلم شعرا لـه فـي الرثـاء ؛ وَمـن شـعره يرثـي بَلَـده وَكَـانَ الفرنـج قد خربته وَقتلت رِجَاله ونساءه وَكَانَ غَائِبا عَنهُ . (٢)

يَا دَار أيْن الْبيض والأرآم ؟(٣)... أم أيْن جيران عَليّ كرام؟

دَار الْمُحب من الْمنَازل آيَة ... حيى فَلم يرجع إِلَيْهِ سَلَام

أخرسن أم بعد المدى فنسينه ... أم غال من كَانَ الْمُجيب حمام

دمعي شهيدي أنني لم أنسهم ... إِن السلو على الْمُحب حرَام

لما أجابتني الصدى عَنْهُم وَلم ... يلج المسامع للحبيب كَلَام

طارحت ورق حمامها مترنماً ... بمقال صب والدموع سجام

يَا دَار مَا صنعت بك الْأَيَّام ... ضامتك وَالْأَيَّام لَيْسَ تضام

مؤلفاته :

قال ابن الأبار :" وَله تواليف مفيدة مِنْهَا كتاب "الرَّوْض الأنف "فِي شرح السّير لِابْنِ إِسْحَاق، وَهُوَ أجل تواليفه ، دلّ بِهِ على سَعَة حفظه، ومتانة علمه ، وَذكر فِي آخِره أَنه ابْتَدَأَ إملاءه فِي الْمحرم سنة ٥٦٩ هـ ، وَفرغ مِنْهُ

---

(١)الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ١٥٠

(٢) ينظر : الوافي بالوفيات ١٠١/١٨، نكت الهميان في نكت العميان ١٦٨، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤٠٠/٣

(٣)الْأَرْآمُ: الظِّبَاءُ الْبِيضُ الْخَالِصَةُ الْبَيَاضِ وَاحِدُهَا (رِئْمٌ) وَهِيَ تَسْكُنُ الرَّمْلَ.مختار الصحاح :رأم.

فِي جُمَادَى الأولى مِنْهَا ،وَأَنه استخرجه من نَيف على مائَة وَعشْرين ديوانا أَو نَحْوهَا، وَكتاب "التَّعْرِيف والإعلام بِمَا أبهم فِي القرآن الْعَزِيز من الْأَسْمَاء الْأَعْلَام"، وَكتاب" شرح آيَة الْوَصِيَّة "وَله شرح فِي الْجمل أَظُنهُ لم يستوفه وَله مسَائِل مستغربة فِي فنون شَتَّى."[١] ، وكتاب "نتائج الفكر " و"مسألة رؤية الله تعالى في المنام"، و"رؤية النبي صلى الله عليه وسلم"، ومسألة السر في عور الدجال" و" تفسير سورة يوسف "[٢]وكتاب "أمالي السهيلي".

كتاب "نتائج الفكرفي النحو" :

لم يختلف أحد من أهل العلم في نسبة الكتاب إلى لسهيلي ، أو في تسميته " نتائج الفكرفي النحو"؛ بل صرح السهيلي نفسه باسمه في مقدمة الكتاب ؛ حيث قال :" فإذا كانت صناعة الإعراب مَرْقاة إلى علوم الكتاب، لا يُتَوَلَّج فيها إلا من أبوابها، ولا يُتَوَصل إلى اقتطاف زهراتها إلا بأسبابها؛ فواجبٌ على الناشئين تحصيل أصولها، وَحَتْمٌ على الشادين البحثُ عن أسرارها وتعليلها، وقد عُزِم لي بعد طول مطالبة من الزمان، ومجاذبة لأيدي الحدثان، وأمراض همة لا تَغِب، وزمانة مرض تنيم الخاطر فلا يهب على جمع نبذٍ من "نتائج الفكر"، اقتنيتها في خلس[٣] من الدهر، معظمها من علل النحو اللطيفة، وأسرار هذه اللغة الشريفة. فالآن حين أردت زفافها إلى أسماع الطالبين،..."[٤]

---

(١)التكملة لكتاب الصلة٣/٣٢

(٢) ينظر :وفيات الأعيان ٣/٢٤٣، الأعلام ٣/٣١٣

(٣)خلس: الخَلْسُ والاختلاسُ: أخذ الشيء مكابرة، تقول: اختلستُه اختلاساً واجتذابا.كتاب العين : خسل

(٤)نتائج الفكر ٣٥

وأشار إليه أيضا في غير كتاب من كتبه ؛ منها " الروض الأنف " ؛ حيث ذكره صراحة فيه ، وبيّن فضله؛ ففي حديثه عن قول الله . تعالى . ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾البقرة:١٨٥، تعرض لبعض مسائل البلاغة فيه ثم قال :" وَقَدْ بَيّنْت أَنّ لِكُلّ مَقَامٍ مَقَامهُ وَلَا بُدّ مِنْ ذِكْرِ شَهْرٍ فِي مَقَامٍ، وَمَنْ حَذَفَهُ فِي مَقَامٍ آخَرَ ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِهِ إذَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةُ أَيْضًا فِي حَذْفِهِ إذَا حُذِفَ مِنْ اللّفْظِ وَأَيْنَ يَصْلُحُ الْحَذْفُ وَيَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ الذّكْرِ كُلّ هَذَا مُبَيّنٌ فِي كِتَابِ "نَتَائِجِ الْفِكْرِ"، فَهُنَاكَ أَوْرَدْنَا فِيهِ فَوَائِدَ تَعْجِزُ عَنْهَا هِمَمُ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ. أَدْنَاهَا تُسَاوِي رِخْلَةً[1] عِنْدَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهَا."[2]

وكتاب " نتائج الفكرفي النحو " علمٌ بين كتب اللغة ، لكنه يختلف عنها في كثير من الأمور ؛ حيث عُني بكثير من مسائل النظم القرآني ، والحديث الشريف ؛ حتى تشعرفي كثير من الأحيان أنه إلى التفسير والبلاغة أقرب رحما من النحو.

وقد بلغ من مكانة الكتاب أن كثيرا من أهل العلم أخذوا منه ؛ فعندما تقرأ كتاب " بدائع الفوائد " لابن القيم تجده كثير النفل عن السهيلي ، وفي كثير يأخذ من "نتائج الفكر " دون إشارة ؛ يقول الأستاذ الدكتور : محمد إبراهيم البنا :"وبالموازنة بين " بدائع الفوائد " وبينه تبيّن أن ابن القيم استطاع أن يدَّعي نحو السهيلي لنفسه ، بتضمينه كتابَ النتائج كتابَه ، بعد أن حذف مقدمته ، وقدم وآخر ، وزاد قليلا واختصر ، حتى ليظن القارئ أن النحو

(١)الرِّخْلُ والرخل: الْأُنْثَى من أَوْلَاد الضَّأْن، وَالْجمع: أرْخُل، ورُخَال، ورِخَال، ورِخْلان. وَهِي الرَّخلة، والرِّخلة.المحكم والميط الأعظم رخ ل.

(٢)الروض الأنف ٢/٢٧٢

الذي يسوقه ابن القيم في كتابه من بدائعه ، والحق أنه ليس له فيه نصيب من قريب أو بعيد ، وأن البدائع المسطورة في كتابه هي " نتائج الفكر " التي نقدمها الآن لصاحبها أبي القاسم السهيلي."(١)

هذا ولم يكن ابن القيم وحده الذي أخذ من النتائج ؛ بل أخذ الزركشي في " البرهان "وكذلك السيوطي في كتابيه "الإتقان" و" معترك الأقران "، وغيرهم ، كما ستظهر الدراسة ؛ مما يعني أن" نتائج الفكر " كان ذا أهمية عند أهل العلم ، ولا أعلم أحدا قال فيه شيئا يقدح في مكانة الكتاب .

ومما يجدر الإشارة إليه أن القارئ لهذا الكتاب يدرك أهمية الكتاب في دراسة النظم القرآني ؛ حيث إن صاحبه كان ذا حس مرهف يقع ببصيرته على دقائق لم يصل إليها أحدٌ قبله ، حتى أشار في كثير من الأحيان أن كلامه أُنُف لم يسبق إليه . ولعل هذه الدراسة تبرز لنا شيئا من بلاغة الرجل، فهو أهل لإلحاقه بأعلام البلاغة والتفسير ، ولا أبالغ إذا قلت إننا إن وصلنا إلى تفسيرتصح نسبته لأبي القاسم السهيلي ، سنجد علما لا يقل عن علم الزمخشري ؛ فالذي يصل إلى نكت أُنف في متشابه النظم جدير بأن يفتح له في التفسير فتح عظيم .

الدراسات البلاغية السابقة :

من خلال البحث في الوسائل المتاحة لم أجد دراسة خاصة بمتشابه النظم القرآني في "نتائج الفكر " ، غير أن هناك دراسة بلاغية بعنوان : "كتاب نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيلي دراسة بلاغية " ؛ للدكتور: حماد حسين حسن ، جاءت في ثلاثة مباحث ؛ الأول : مسائل في علم

(١) نتائج الفكر ٧

المعاني ، والثاني: مسائل في علم البيان ، والثالث: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، وهو بحث طيب ؛غير أنه لم يعرض لمتشابه النظم إلا في القليل النادر ، بطريقة موجزة جدا ، إذ من الصعوبة بمكان أن يحيط بحث صغير لم تصل عدد أوراقه إلى تسعين ورقة بكل مسائل البلاغة في كتاب " نتائج الفكر " .

أيضا هناك دراسة في جامعة الإمام محمد بن سعود ؛ عنوانها :"البحث البلاغي عند السهيلي دراسة وتقويما" ؛ ماجستير للباحث:صالح بن عبد الله الشتري ، بتاريخ ١٤١٧/٢/١٧هـ ، وهي دراسة معنية بتراث السهيلي كله ، وليست خاصة بمتشابه النظم القرآني في " نتائج الفكر " كدراستنا .

هذا ومازال كتاب " نتائج الفكر " بحاجة إلى مزيد من الدراسات البلاغية.

المطلب الثاني:

المقصود بمتشابه النظم القرآني وأهمية دراسته

جاء في اللسان : الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، وَالْجَمْعُ أَشْباهٌ. وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ: مَاثَلَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ .والمُتَشابِهاتُ: المُتَماثِلاتُ.(١)

والمراد بمتشابه النظم القرآني: الآيات التي تكررت وتشابهت بسبب التقديم والتأخير، أو الزيادة والحذف، أو التعريف والتنكير، أو إبدال حرف مكان حرف آخر، أو كلمة مكان كلمة...إلخ.(٢)

وهذا النوع من النظم ورد بكثرة في الذكر الحكيم ، إما بتكرار في القصة الواحدة ، مع اختلاف في نظمها من موضع لآخر؛ أو بتشابه آيات في غرضها وفي نظمها ثم تأتي المخالفة في واحدة من الأمور التي سبق ذكرها .

أهميته :

هذا العلم من الأهمية بمكان ؛ حيث إنه طريق من طرق معرفة الإعجاز ،يقول الزركشي :" وَحِكْمَتُهُ التَّصَرُّفُ فِي الْكَلَامِ وَإِتْيَانُهُ عَلَى ضُرُوبٍ لِيُعْلِمَهُمْ عَجْزَهُمْ عَنْ جَمِيعِ طُرُقِ ذَلِكَ مُبْتَدَأً بِهِ وَمُتَكَرِّرًا ."(٣)

---

(١) لسان العرب : شبه

(٢)درة التنزيل وغرة التأويل ٥١/١

(٣)البرهان في علوم القرآن ١١٢/١

فمجيء الكلام على ضروب مختلفة حتما له دلالة وسر لتلك المغايرة ، وليس من باب التفنن في الكلام فحسب ، وإن عجزنا عن إدراك سره فلا ينفي وجوده ؛ وإنما نقر بعجزنا عن الوصول إليه ، يقول الخطيب الإسكافي :" إذا أورد الحكيم . تقدست أسماؤه . آية على لفظة مخصوصة ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غير فيها لفظة عما كانت عليه في الأولى فلا بد من حكمة هناك تطلب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم."(١)

ومتشابه النظم القرآني له صور كثيرة منها:المتشابه باعتبار الإفراد والجمع ، ومَا تشابهُ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ،وما تشابه بالتقديم وَالتَّأْخِيرِ، وما تشابه بالتعريف والتنكير ، وما تشابه بإِبْدَال حَرْفٍ بِحَرْفِ غَيْرِهِ، ومنه إِبْدَالُ كَلِمَةٍ بِأُخْرَى، ومنه الإدغام وتركه،(٢) ...إلخ ، وفي الصفحات القادمة أذكر ما جاء في كتاب " نتائج الفكر " من متشابه النظم القرآني ، ثم أدرسه في ضوء ما قال السهيلي وغيره من أهل العلم ؛ لنقف على بعض أسرار القرآن الكريم ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

المسألة الأولى: متشابه النظم بالحذف والإثبات

في كثير من الشواهد القرآنية تجد تشابها في غرضها ونظمها؛ ثم تأتي المخالفة في النظم بحذف أوإثبات، وقد أشارالسهيلي إلى شيء من هذا في غير موضع من كتابه، وله فيها قول جدير بالبحث ؛ وهذه دراسة كاشفة عن البلاغة القرآنية في تلك الشواهد المتشابهة في النظم القرآني ، ثم جاءت

(١)درة التنزيل وغرة التأويل ٢٥٢/١

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ١١٢/١وما بعدها .

المخالفة بحذف حرف أو كلمة في موضع وإثباته في آخر؛ وهذه المواضع تتمثل فيما يأتي :

الموضع الأول: إثبات حرف الجر وحذفه مع الفعل " غفر "

في حديث السهيلي عن إثبات حرف الجار وحذفه مع الفعل " غفر" و"استغفر " في قولهم : "استغفر زيدٌ ربَّه ذنبَه "، ذكر أن الأصل في هذه المسألة سقوط حرف الجر؛ " وأن يكون " الذنب " مفعولاً بالغفران الذي لا يتعدى بحرف؛ لأنه من " غفرتُ الشيءَ "، إذا غطيته وسترته..."(١)

ثم قال :" وأما إذا قلت: " اسْتَغْفِر "، أو " أستغفِرُ أنا الله "، ففي ضمن الكلام ما لا بد له من حرف الجر؛ لأنك لا تطلب غَفْرًا مجردًا من معنى التوبة والخروج من الذنب، وإنما تريد بالاستغفار خروجا من الذنب وتطهيراً منه، فلزمت " مِن " في الكلام لهذا المعنى فهي متعلقة بالمعنى لا بنفس اللفظ، فإن حذفتها تعدى الفعلُ ونصبَ، وكان بمنزلة قولك: " أمرتك الخير ".(٢)

ذكر الرجل أنّ الأصل في هذه المسألة سقوط حرف الجار ، كما سبق بيانه ، ثم بيّن أن حرف الجار يأتي فيما لابد منه في بعض المواضع ؛ وذلك إذا كنت لا تطلب غَفْرًا مجردا عن التوبة والخروج من الذنب ، أمّا إذا قصدت التوبة والخروج من الذنب جاء الحرف ، الذي يؤذن بالخروج من الشيء.

---

(١)نتائج الفكر ٣٣٣

(٢) السابق .

والفرق بينهما دقيق جدا ؛ فالأول: يكون المراد ستر الذنب ومحوه ، والثاني: فيه ستر للذنب وزيادة ؛ وهي أن يخرج المذنب من ذنبه بالتوبة والرجوع ، فقد يُغفر الذنب وصاحبه مازال في معصية و شر ، أما الثاني فهو غفرانٌ للذنب ، وخروجٌ من لجة المعاصي إلى شاطئ التوبة .

ولهذا المعنى الدقيق الذي يأتي من إثبات الحرف وحذفه ، تعرض السهيلي إلى شواهد قرآنية تشابهت في نظمها ، ثم اختلفت بإثبات الحرف"من" تارة ، وحذفه أخرى ؛ ففي قوله . تعالى . : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ نوح ، وقوله : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ الأحقاف ، ثبتت ﴿ مِّن ﴾في الموضعين .

ثم تقرأ قوله . تعالى . :﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ آل عمران ، وقوله :﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ الصف ، تجدها قد حذفت في الموضعين ؛ فسياق الآيات متشابه إلى حد كبير؛ ففي كلٍ مغفرة للذنوب ، فَلِمَ ثبتت ﴿ مِّن ﴾ في سياق وحُذِفت في آخر؟ ؛ ويشير السهيلي إلى ذلك ؛ فيقول :" فإن قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ ، و ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم ﴾ ؟.

قلنا: هي متعلقة بمعنى الإنقاذ والخروج من الذنوب، وإنما دخلت لِتُؤذِنَ بهذا المعنى ولكن لا يكون ذلك في القرآن إلا حيث يذكر الفاعل الذي هو

المذنب، نحو قوله: ﴿ لَكُم ﴾ ، لأنه المُنْقَذُ المُخْرَجُ من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: (يغفر من ذنوبكم) – دون أن تذكر الاسم المجرور – لم يَحْسُن إلا على معنى التبعيض؛ لأن الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ، قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه."(١)

سر زيادة ﴿ مِّن ﴾ عنده تقريروتوكيد غفران سائر الذنوب في عقول المخاطبين ، والإيذان بالخروج منها على الكلية ؛ ومرد ذلك إلى أن دخول ﴿ مِّن ﴾ أفاد معنى الإنقاذ والخروج من الذنوب ، فكأن المعنى : ينقذكم ويخرجكم من ذنوبكم ، لكنك لا تشعر بهذا المعنى في القرآن إلا في مقام ذكر الفاعل المذنب ﴿ لَكُم ﴾ ؛ إذ الإيمان بعد الكفر أخرجه من الذنوب ، بخلاف ما لو جاءت بدونه هكذا" يغفر من ذنوبكم " ، فلا تفيد إلا التعيين ؛ لأن معنى الإنقاذ والخروج الدال على العموم والشمول قد ذهب بذهاب الاسم الواقع عليه وهو ﴿ لَكُم ﴾ أي ذهب بذهاب المُنقَذ.

ثم انتقل السهيلي بعد ذلك للحديث عن سرحذفها في الشاهدين الآخرين فقال : "فإن قلت: فقد قال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، وقال في سورة الصف:﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ فما الحكمة في سقوطها ههنا ؟ وما الفرق؟.فالجواب: أن هذا إخبار عن المؤمنين الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محيطة بهم كإحاطة الكفر المهلك بالكافر، فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثَمَّ إحاطة من الذنب بالمذنب، وإنما تضمن معنى الإذهاب والإبطال للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات،

(١) السابق .

بخلاف الآيتين المتقدمتين فإنهما خطاب للمشركين وأمرٌ لهم بما ينقذهم ويخَلِّصهم مما أحاط بهم وهو الكفر، وأما المؤمنون فقد أنقذوا."(١)

مفاد كلامه أنّ الخطاب في الآيتين المتقدمتين كان للكافرين، فحيث ذُكِر الحرف "من " فُهِمَ أن الخطاب للكافر ، الذي أحاط به الكفر، فدخول الحرف يؤذن بالخروج من الكفر والاستنقاذ منه ، وأما الخطاب في آيتي آل عمران والصف ، فإنه خطاب للمؤمنين الموحدين ، فليس ثمة إحاطة للذنب بهم كالفئة الأولى ، حيث إنهم قد أُنقِذوا بالفعل من الكفر، فذهاب الحرف يوحي بذهاب الكفرعنهم ، وأن المغفرة تثبت لهم مقاما أعلى غير سابقيهم .

زيادة " من " بين البلاغيين والنحويين:

وإنما ذكرت هذا لأن السهيلي . وهو المَعْنِيّ بهذه الدراسة . علمٌ من أعلام النحو؛ وكتابه كتاب نحوٍ في المقام الأول؛ فأحببت أن أقف على قول النحاة فيها؛ حتى ندرك قول الرجل ؛ هل سار على نهج النحاة فيها أم لا ؟

أقول : في حديث النحاة عن معاني" من " ذكروا أنها قد تأتي زائدة ، وجعلوا الآيات السابقة شاهدا على زيادتها ، ويأتي على رأس القائلين بزيادتها في المواضع السابقة الأخفش؛ فقد نقل عنه أبو البركات الأنباري أنه " يجوز أن تُزَاد في الإيجاب، كما يجوز أن تُزَاد في النفي، ويحتج بقوله تعالى:﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ أي يغفر لكم ذنوبكم"(٢) ، ومن القائلين بزيادتها الكسائي وابن مالك والمرادي وغيرهم ... (٣)

---

(١) السابق .

(٢)الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين ٣١٠/١

(٣) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني ٣١٨

يتضح مما سبق أن كثيرا من النحاة يجعلون ﴿مِّن﴾ في المواضع السابقة زائدة ، ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن سرٍ لهذا الذي يقولون بزيادته ، ولو فتشوا لوجدوا ، أو كان يكفيهم القول: الله أعلم بأسرار كتابه ، أما السهيلي . وكان ذا حس مرهف . لم يذهب مذهبهم ، وإنما خالفهم وجعل لها مزيّة ونكتة تذهب بذهابها ؛ مما يعني أن القول بزيادتها بعيد .

أقول : أحسن السهيلي في مخالفته النحاة في هذا المقام ؛ وإن القول بزيادة حرف في القرآن الكريم ، مما لا تميل إليه النفس ، دع عنك أن ظاهر الآيات واحد ؛ وأن محاولة التماس معنى للحرف الذي ظاهره زيادة ضرب من التكلف ، فما من حرف جاء في كتاب الله . تعالى . إلا وله معنى جليل ، وإن غاب هذا المعنى عنا فلا يعني عدمه ، ويعجبني في هذا المقام قول الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الله دراز . رحمه الله . : " ليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى...دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها "مقحَمة" وفي بعض حروفه إنها "زائدة" زيادة معنوية. ودع عنك قول الذي يستخف كلمة "التأكيد" فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به.أجل، دع عنك هذا وذاك، فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل – مستورًا أو مكشوفًا– بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن.وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح. فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون؛ ولكن قل قولًا سديدًا هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف. قل:الله أعلم

بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه. ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلًا: أين أنا من فلان وفلان؟ .. كلا، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل."(١)

هذا وللزمخشري ـ رحمه الله . كلام طيب يحسن الإشارة إليه حيث يقول:" فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله ﴿ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وقال في خطاب المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد.

وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم"(٢)

كلام الزمخشري قائم على نحو لا يفهم منه إلا أن " من " تأتي للتفرقة بين خطاب وخطاب ؛ فمتى جاءت "من " كان الخطاب للكافرين ، ومتى ذهبت توجه الخطاب للمؤمنين . فدخولها للتمييز بين الفريقين ، ودفع إيهام التسوية بينهما في الجزاء، الذي عبرعنه بالميعاد ، كما نقل الزمخشري عن غيره أنها دخلت للدلالة على غفران ما بينهم وما بين الله ، دون ما بينهم وما بين العباد .

---

(١) ينظر: النبأ العظيم ١٦٣، ٢٦٤ ، ١٦٥

(٢) الكشاف ٥٤٢/٣

وعلى النحو الذي ذهب إليه الزمخشري في إثبات " من " وحذفها سار كثير من أهل العلم منهم أبو حيان ؛ فقد نقل قوله دون زيادة فقال :" وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ الِاسْتِقْرَاءَ فِي الْكَافِرِينَ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، وَفِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، وَكَانَ ذَلِكَ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْخِطَابَيْنِ، وَلِأَنْ لَا يُسَوِّيَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ انْتَهَى."(١)

وعليه ذهب الزركشي والسيوطي؛ حيث نقلا كلام الزمخشري بفصه ونصه دون زيادة أو نقصان وقد تركت ذكر قولهما؛ لأنهما لم يقدما جديدا يذكر (٢).

أقول : ما ذهب إليه الزمخشري ومن تبعه حسنٌ ؛ غيرأن قول السهيلي أحسن منه وأدخل في مقتضى السياق من جهات ؛ الأولى : كون الخطاب بإثبات الحرف للكافرين ، وبحذفها للمؤمنين ، ولا شك أن الأول يحتاج إلى تقرير دون الثاني ؛ إذ ليس عند المؤمن أدنى شك في مغفرة الله . تعالى . له ؛ فلا يحتاج الكلام إلى تأكيد بخلاف الأول . الثانية : ما يقتضيه توكيد العمل من توكيد الجزاء ؛ إذ قال في شأن نوح ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾، وقال في الأحقاف :﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾، الثالثة : تصعيد الجزاء في قوله :﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ،وقوله: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، الرابعة: التهديد في قوله :﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وقوله :﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛والتهديد تخويف وترهيب

(١)البحر المحيط في التفسير ٦/٤١٤

(٢) ينظر :البرهان في علوم القرآن ٣/٢٢٠، الإتقان ٢/٢٩٦، معترك الأقران ٢/٥٣٢

يناسب توكيد الترغيب والتبشير بالغفران على الكلية ، الخامسة: سلامة قول السهيلي من النقد ؛ أما كلام الزمخشري ومن تبعه لم يسلم من النقد ؛ يقول الرازي:" وَأَمَّا قَوْلُ صَاحِبِ "الْكَشَّافِ" : الْمُرَادُ تَمْيِيزُ خِطَابِ الْمُؤْمِنِ عَنْ خِطَابِ الْكَافِرِ بِمَزِيدِ التَّشْرِيفِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الطَّامَّاتِ؛ لِأَنَّ هَذَا التَّبْعِيضَ إِنْ حَصَلَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ هَذَا الْجَوَابِ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ كَانَ هَذَا الْجَوَابُ فَاسِدًا."(١)

ولست الآن بصدد بيان تعسف الرازي في وصفه قول الزمخشري بأنه من باب الطامات ، وإنما أوكد على سلامة رأي السهيلي من النقد ، كما أنه أدخل في بيان المعنى المسوق له الكلام.

الموضع الثاني: إثبات " تاء التأنيث" وحذفها من الفعل :

في حديث السهيلي . رحمه الله . عن " إلحاق علامة التأنيث بالفعل وحذفها " ذكر أن الفعل إذا فُصِلَ عن فاعله المؤنث جاز إثبات التاء وحذفها؛ " فكلما بعد عنه قوي حذف العلامة منه، قالوا: حضر القاضي اليوم امرأةٌ. وفي القرآن: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾.هذا مثلُ هذا في الجواز."(٢)، فمتى فُصِل بين الفعل وفاعله المؤنث جاز إثبات التاء وحذفها؛ تقول : "حضر مجلسَ العلم امرأةٌ " بحذف تاء التأنيث ، ويجوز لك إثباتها ؛ فالأمران سواء .

ثم إذا كان الوجهان يستويان من الناحية النحوية ، ولا تجد فضلا لأحدهما على الآخر؛ فالحال يختلف إذا رأيته في القرآن الكريم ؛ حيث

---

(١)مفاتيح الغيب ٧٣/١٩

(٢) نتائج الفكر ١٣٠

إنك تجد فيه نظمين متشابهين، وقد ذُكِر في أحدهما التاء دون الآخر؛ مما يعني وجود فرق دقيق بين النظمين ؛ مما يدعو إلى البحث عن سر تلك المخالفة .

وقد تعرض السهيلي لموضعين من كتاب الله . تعالى . وبيّن سر إثباتها وحذفها .

الموضع الأول :

جاء في حديث القرآن عن جزاء قوم صالح . عليه الصلاة والسلام ـ ؛ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ . وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ هود: ٦٦ – ٦٧ ؛ بحذف التاء في قوله . تعالى .: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ .ثم تجد في السورة نفسها حديثا متشابها عن جزاء قوم شعيب . عليه الصلاة والسلام . قال . تعالى . : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ هود:٩٤؛ بإثبات التاء في قوله : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ .

الموضعان متشابهان تشابها كبيرا في الغرض المسوق له الكلام ؛ ففي كلٍ تكذيب لرسولهم ، وجحود لأمر ربهم ، فكانوا أهلا لما نزل بهم من العذاب ، ثم تشابه العذاب الذي نزل بالطائفتين ؛ قال . تعالى . : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ؛ فكلٌ أخذته الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، فالعذاب الذي حلّ بهم واحد ، والنظم المعبر به عن جزائهم متشابه إلى حد كبير كما هو بيّن ، ثم جاءت تلك المخالفة بإثبات التاء في الفعل

﴿وَأَخَذَتِ﴾ في حديث شعيب، وحذفها في حديث قوم صالح ﴿وَأَخَذَ﴾ ؛ وهو ما يدعو إلى البحث عن سرِّ تلك المخالفة ، ولو كان هذا في غير كتاب الله . تعالى . كان الأمر هينا ؛ فربما قيل من باب التفنن في القول ، وبيان جواز الأمرين ، أما وقد ورد في كتاب الله . تعالى . فإنه يعني أن له شأنا آخر .

وللسهيلي . رحمه الله . كلام طيب في بيان علة تلك المخالفة ؛ فإذا كان قد بيّن من قبل أن الأمرين من الناحية النحوية سواء، وهو مما تكلمت به العرب ، فإنه لم يكتف بهذا التعليل ؛ حيث إنه ورد في كتاب الله . تعالى .؛ فأخذ يبيّن سرَّ تلك المغايرة فقال : " فإن قيل: فإذا استوى ذكر " التاء " وتركها في الفعل المفصول عن الفاعل المؤنث، فما الحكمة لاختصاصها في الفعل في قصة شعيب، وحذفها في قصة صالح في قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ؟.فالجواب: أن الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي؛ إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه وتعالى:﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ .فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية، فقوي التذكير، بخلاف الآية الأخرى، والله أعلم."(١)

يعجبني طريقة السهيلي ؛ في بناء كلامه على السؤال والجواب ؛ حيث إنه باب خصب من ابواب الوصول إلى أسرار الكلام ، وليس غريبا أن يسمى الرجل كتابه " نتائج الفكر "، حيث يجعل دراسة النحو مدخلا للفكر البلاغي الذي يصل بصاحبه إلى أسرار التراكيب.

(١)نتائج الفكر ١٧٠

وقد بيّن سرحذفها في قصة صالح ، أن صيحة قوم صالح بمعنى العذاب والخزي ؛ إذ كانت منتظمة مع قوله . تعالى . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ، الذي ورد ذكره في نفس القصة ، فقوي التذكير لهذا المعنى؛ ففسرت الصيحة بمعنى الخزي والعذاب ؛ فَحَسُن التذكيرمراعاة لهذا ، وهذا حسنٌ أن تأخذ من القصة الواحدة بيانا لما أبهم ، والذكر الحكيم يفسر بعضه بعضا كما هو معلوم .

أقول : ما ذهب إليه السهيلي حسنٌ ، لكنه دليل يصل بنا إلى سرالمخالفة بالحذف والإثبات ، وليس هو السر الكامل فيه ؛ فالرجل فتح لنا بابا حسنا ، لكنه لم يذكرلنا ما وراءه من أسرار، حيث إنه أشار إلى أن الصيحة التي حذفت التاء فيها بمعنى العذاب والخزي، وحتى نصل إلى تعليل مقبول نسأل ؛ لِمَ جاء في قصة صالح ما يفهم منه أن الصيحة التي أخذتهم بمعنى العذاب والخزي؟ ولم يأت ذلك في قصة شعيب ؟

وهل هناك فرق في المعنى إذا حُمِلت الصيحة على معنى العذاب والخزي وبين ألا تحمل عليه؟ وأليس العذاب شاملا للصيحتين ؟ فَلِمَ جاء في واحدة دون أخرى ؟

وإذا كان السهيلي قد نظر إلى حذف التاء لانتظامه مع العذاب والخزي الذي جاء في سياق القصة نفسها ، فحسن التذكير مراعاة لهذا المعنى ، فإن الخطيب الإسكافي **(المتوفى:** ٤٢٠هـ**)** قد نظر إليها باعتبار آخر؛ فقال :" قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام:﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾. وقال في هذه السورة في قصة شعيب عليه السلام:﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ،

للسائل أن يسأل عن اختلاف الفعلين في اتصال علامة التأنيث بأحدهما، وسقوطها من الآخر، مع أن الفاعل فى الموضعين شيء واحد وهو ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مع أن الحاجز بين الفعل والفاعل في المكانين حاجزٌ واحد، وهو ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؟

والجواب أن يقال: إن مثل هذا إذا جاء في كلام العرب سهل الكلام فيه؛ لأنه يقال: حمل على المعنى، والصيحة بمعنى الصياح، كما أن قول الشاعر:

يا أيُّها الرَّاكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ[1]

حمل على المعنى إذ الصوت بمعنى الصيحة.غيرأن السؤال الذي بنيت الآيات لازم، وهو أن يقال: فهل كان يجوز مكان أخذت أخذ في القرآن؟ وهل لتخصيص قصة شعيب ب﴿وَأَخَذَتِ﴾ فائدة ليست لها قصة صالح عليه السلام.؟

والجواب عن هذا الموضع هو أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ:

منها﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ

(١)قائله: رويشد بن كثيرٍ الطائي ؛يخاطب الراكب السائق لمطيته بإعجالٍ، يسأله أن يبلغ بني أسدٍ عنه عن طريق الفحص والاستعلام: ما هذه الجلبة. وهذا الكلام تهكمٌ وسخرية، لأنه هو الذي أثار عليهم ما اهتاجوا له، وجلب عليهم ما أشكاهم. وإنما قال ما هذه الصوت، والصوت مذكر، لأنه قصد به إلى الصيحة والجلبة. ينظر : شرح ديوان الحماسة ١٢٤

جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ﴾ الأعراف، وذكر ذلك قبله في مكان آخر. ومنها ﴿ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ في سورة هود في قوله تعالى:﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾.ومنها ﴿ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ في سورة الشعراء ، في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ الشعراء: ١٨٩.وفي التفسير أن هذه الثلاث جمعت لإهلاكهم واحدة بعد أخرى، لأن الرجفة بدأت بهم فانزعجوا لها عن الكنِّ إلى البراح، فلما أصروا نال منهم حر الشمس وظهرت لهم ظلة تبادروا إليها، وهي سحابة سكنوا إلى روح ظل تحتها فجاءت الصيحة فهمدوا لها.فلما اجتمعت ثلاث أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات، فلذلك جاء في قصة شعب: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾."(١)

يبدو أن السهيليّ كان متاثرا بكلام الإسكافي السابق من وجهين؛ الأول: أن هذا مما تكلمت به العرب ، والثاني : أن كلا منهما نظر إلى سياق القصة ؛ حيث ذهب الإسكافي إلى أن سرالتأنيث جاء منتظما مع ما ورد في القصة من ألفاظ مؤنثة ؛ وهي﴿ ٱلرَّجۡفَةُ ﴾، و﴿ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ ، و﴿ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ فناسب ذلك تأنيث الفعل.

والفرق بينهما أن السهيلي نظرإلى ما جاء في القصة من لفظ مذكرفحذفت التاء من الفعل مراعاة له ، والإسكافي نظر إلى ما جاء من ألفاظ مؤنثة ناسبها ذكر التاء ؛ فبيّن أن إثباتها جاء منتظما مع لفظتي :

(١)درة التنزيل وغرة التأويل ٤٦٤/٢

﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾،و ﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾ اللتين ورد ذكرهما في نفس القصة في مواضع أخرى ؛ فحسن التأنيث لهذا السبب ، وما ذهب إليه الخطيب هو بعينه منهج السهيلي في بيان السر؛ ففي كل نظر إلى سياق القصة في مواضعها المختلفة ، فحيث وردت ألفاظ مؤنثة مع قوم شعيب سار القرآن على هذا النهج وجاءت التاء ، وحيث جاء ما يفيد العذاب مع قوم صالح حسن حذف التاء من الفعل.

أقول : ما ذهب إليه الرجلان يخرج من مشكاة واحدة ؛ فكلاهما نظر إلى سياق القصة ، لكنه كلام لا يشفي غلة ، فهو مما يساعد على الوصول إلى سر المخالفة ، وليس هو السر الكامل؛ حيث إن السؤال الذي يُعنى به الباحث ومازالت إجابته مفقودة ، هو ما السر في تضمين قصة شعيب . ما يفهم منه تأنيث ما وقع بهم ، وتضمين قصة صالح ما يفهم منه تذكير العذاب ؟ وهل يصح أن يتبادل التأنيث والتذكير هذا الموضع ؟

وقد بحثت كثيرا عند أهل العلم فوجدت الكثير قد نَهَج نَهْج الإسكافي و السهيلي ؛ ما بين معجب بقولهما ، أو تذكره دون إضافة ؛ منهم مكي بن أبي طالب المتوفى ٤٣٧هـ فكلامه يخرج من مشكاة الإسكافي، وقد تركت ذكره لأنه لا جديد فيه يذكر.(١)

وعلى شاكلة مكي بن ابن طالب في أخذ كلام الإسكافي جاء الكرماني ؛ حيث قال : "قَالَ الْخَطِيب لما جَاءَت فِي قصَّة شُعَيْب مرّة ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾، ومرّة﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾،ومرّة ﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾ ازاداد التَّأْنِيث حسنا"(٢)

(١)مشكل إعراب القرآن ٣٦٨/١

(٢)أسرار التكرار في القرآن ١٤٦

أما الزركشي المتوفى: ٧٩٤هـ فقد جاء كلامه مزيجا من قول السهيلي والإسكافي ؛ حيث استحسن قول السهيلي ، فقال:" وَأَبْدَى السُّهَيْلِيُّ لِلْحَذْفِ وَالْإِثْبَاتِ مَعْنًى حَسَنًا فَقَالَ: ... "وذكر كلام السهيلي برمته [١] ، ثم تعرض إلى مذهب الإسكافي دون إشارة إليه فقال :" وَأَجَابَ غَيْرُهُ: بِأَنَّ الصَّيْحَةَ يُرَادُ بِهَا الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الصِّيَاحِ فَيَجِيءُ فِيهَا التَّذْكِيرُ فَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الْوَحْدَةُ مِنَ الْمَصْدَرِ فَيَكُونُ التَّأْنِيثُ أَحْسَنَ.وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْعَذَابِ الَّذِي أَصَابَ بِهِ قَوْمَ شُعَيْبٍ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ كُلُّهَا مُفْرَدَةُ اللَّفْظِ..."[٢]، وذكر أيضا الكلام بفصه ونصه دون إشارة كما بيّنت ، وعلى النحوالسابق سار غير واحد من أهل العلم ؛ دون إشارة إلى السر الحقيقي الذي تحذف التاء من أجله أو تذكر.

ولم أجد أحدا أشار إلى سر تلك المخالفة غير البقاعي .رحمه الله . ؛ حيث قال :" ...ثم بين إيقاعه بأعدائه بعد إنجائه لأوليائه فقال معظماً للأخذ بتذكير الفعل: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾. وأشار إلى عظمة هذه الصيحة بإسقاط علامة التأنيث."[٣]

وفي حديثه عن قصة شعيب قال :" وكأنها كانت دون صيحة ثمود لأنهم كانوا أضعف منهم فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك"[٤]

سر التذكير والتأنيث عند البقاعي يرجع إلى قوة المأخوذ وضعفه ؛ وكذلك مرعاة ما نزل بهم قوة وضعفا ؛ فكلٌ له ما يناسبه من عذاب ؛ فقوم

---

(١)البرهان في علوم القرآن ٣٦٨/٣

(٢)السابق.

(٣)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣٢٥/٩

(٤)السابق ٣٦٩

صالح كانوا أشدة قوة من قوم شعيب ، فناسب تذكير مانزل بهم من عذاب ، وتأنيث ما حل بقوم شعيب .

أقول: كلام البقاعي السابق حسن ؛ لكنه يخلو من دليل يؤكد به ما ذهب إليه ، وقد بحثت فما وجدت أحدا أشار إلى ما أشارإليه من أن قوم صالح أشد قوة وبطشا من قوم شعيب ؛ ولعل كلام الرجل قائم على استقصاء ما جاء في الذكر الحكيم من حديث عن قوم صالح وشعيب ، وباستقصاء ما جاء في الذكر يتبين لي صحة ما ذهب إليه البقاعي ؛ ففي حديث القرآن عن قوم صالح تجد قوما قد بلغوا في القوة الغاية ، تأمل هذا المشهد الذي يحكيه القرآن عنهم في سورة الأعراف : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الأعراف ، وقال عنهم : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ العنكبوت؛ فقوم يتخذون من سهول الأرض قصورا ، وينحتون جبالها بيوتا ، هل هناك قوة أشد من هذه ؟ مما جعلتهم يغترون بقوتهم ، ويطلبون من صالح أن يأتيهم بما يعدهم ؛ إمعانا في التحدي ، يقول القرآن: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الأعراف ؛ إنه تحدي المتكبر المغرور ، الذي ظن أنه لا قوة فوق قوته ، فناسب ذلك أن يرسل عليهم عذابا شديدا.

وبتتبع ما في الذكر من حديث عن قوم شعيب تجد نبرة مختلفة ؛ إذ هي أخف وطأة من التي جاء عليه حديث قوم صالح ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ

﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود، فلا تجد تحديا وطلبا للعذاب كما كان عند قوم صالح ؛ فجاء الحديث أخف وطأة من الحديث السابق؛ فناسب ترك التاء هنا دون الأول، والله أعلم .

الموضع الثاني:

ذكرت في الصفحات السابقة أنه متى فُصِلَ بين الفعل وفاعله المؤنث جاز إلحاق تاء التأنيث بالفعل وتركها ، ثم إذا استوى الأمران ووردا في كتاب الله . تعالى . بإثباتها تارة ، وحذفها أخرى في نظمين متشابهين ؛ فلنا أن نسأل عن سرذلك ؛ كما رأينا في الشاهد السابق . وقد تعرض السهيلي لشاهدين جديدين متشابهين في نظمهما ، وفي الغرض المسوق له الكلام ، ثم ذكرت التاء في أحدهما دون الآخر .

ففي قول الله . عزوجل . :﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأعراف،

ترك ذكر التاء في قوله . تعالى . ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾،ثم تقرأ قوله . تعالى .:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل: ٣٦ ،

بإثبات التاء في قوله . تعالى . :﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾؛ وهو ما يدعو للبحث عن سر المغايرة .

يقول السهيلي :"فإن قيل: فما الفرق بين قوله عز وحل: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾ وبين قوله: ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾ حتى ثبتت التاء في إحداهما، وحذفت في الأخرى؟.[1]

الأمرلا يحتاج إطالة نظر في إدراك الفرق بين النظمين؛ فهما متشابهان إلى حد كبير في الغرض المسوق له الكلام ؛ وذكرت التاء في نظم وحذفت فى آخر ، غير أن الوقوف على سر المغايرة بينهما بالحذف والإثبات مما يحتاج إلى إمعان نظر ، وطول تدبر؛ وسرهذا عند السهيلي لا يرجع للفصل بين الفعل وفاعله فقط ؛ إذ لا يكفي عنده أن يقال الفصل هو المسوغ ، إذ لو صح هذا جوابا في كلامنا فلا يستقيم في كتاب الله . تعالى . ،وإنما يبحث عن علته ؛ يقول السهيلي:"لو كان هذا السؤال في غير القرآن ما احتاج إلى جواب، لأن الإثبات والحذف جائزان، فللمتكلم أن يفعل من ذلك ما شاء، ولكن كلام الحكيم الخبير ليس كغيره من الكلام؛ لإعجازه في الأسلوب والانتظام. والفرق بين الموضعين المتقدمين لائح من وجهين: أحدهما لفظي

(١)نتائج الفكر ١٧١

والآخر معنوي؛ أما اللفظي فهو أن الحروف الحواجز بين الفعل والفاعل في قوله:﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾أكثر منها في قوله:﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.وقد تقدم أن الحواجز بين الفعل والفاعل كلما كثرت كان حذف " التاء " أحسن .

وأما الفرق من جهة المعنى فإن﴿ مَّنْ ﴾في سورة النحل واقعة على الأمة، وهي مؤنثة لفظاً، ألا تراه يقول سبحانه:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ثم قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.أي: من الأمم أممٌ ضلت و حقت عليها الضلالة ولو قال بدل ذلك: ضلت، لتعينت التاء، ومعنى الكلامين واحد، وإذا كان معنى الكلامين واحداً كان إثبات التاء أحسن من تركها، لأنها ثابتة فيما هو في معنى الكلام.وليس كذلك قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ ، لأن معناه: وفريقاً ضلوا، بغير تاء في اللفظ، فليحسن حذفها إذاً فيما هو في معناه،..."(١)

علل السهيليُّ حذف التاء في موضع ، وإثباتها في آخر بأمرين ؛ الأول: لفظي ؛ حيث أشارإلى أنه كلما كثر الحاجز بيّن الفعل وفاعله المؤنث كان ترك التاء أولى ، وهذا ينطبق على الشاهد الذي ترك فيه ذكر التاء ؛ فالفاصل في في قوله:﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾أكثر منها في قوله:﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾، فكان ترك التاء في الأول أولى من الثاني .

وعلى نهج السهيلي سارالزركشي؛ حيث قال:" فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ وَبَيْنَ

(١) السابق

قَوْلِـهِ:﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.؟ قِيـلَ: الْفَـرْقُ بَيْنَهُمَـا مِـنْ وَجْهَيْنِ: لَفْظِيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ:

أَمَّا اللَّفْظِـيُّ، فَهُوَ أَنَّ الْفَصْـلَ بَيْنَ الْفِعْلِ والفاعل فـي قولـه:﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ ، أكثرمنها فـي قولـه: ﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ وَالْحَذْفُ مَـعَ كَثْرَةِ الْحَوَاجِزِ أَحْسَنُ."(١)

كـلام الزركشـي ظـاهرٌفي أنـه مـأخوذ مـن كـلام السـهيلي ، فـلا يحتـاج الأمر دليلا لإثبات الأخذ منه ، فالكلام برمته منقول من " نتائج الفكر "، ولم يكن الزكشي وحده الذي أخذ قول السهيلي السابق ؛ فقد أخذه السيوطي في كتابيه " الإتقان في علوم القرآن " و "**معترك الأقران في إعجاز القرآن**"(٢) ، وأخذه أيضـا الدكتور: **محمد عبد المنعم . القيعي رحمه الله** . في كتابه " **الأصلان في علوم القرآن**" ؛ حيث نقل كلام السهيلي بفصه ونصه دون إشارة .(٣)

هذا وما علل به السهيلي ترك التاء مراعاة للجانب اللفظي، في النفس شيء منه ؛ فعنده إذا كَثُر الحاجز بين الفعل وفاعله المؤنث فالأحسن تركها.

أقول: إذا تتبعت الذكر الحكيم وجدت غير ذلك ؛ فإذا كان الأحسن ترك التاء لطول الحاجز فكيف نفسر إثبات التاء في قوله . تعالى - ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ يونس: ٩٧، وحذفها من

(١) البرهان في علوم القرآن ٣٦٩/٣

(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ٣٤٥/٢ ، معترك الأقران في إعجاز القرآن٤٧١/٣

(٣) ينظر : الأصلان في علوم القرآن ٣٨٣

قوله . تعالى . ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٥، فالحاجز في الآية الأولى أكثر من الآية الثانية ؛ ومع ذلك ذكرت في الأول وحذفت في الثانية ، ولو كان الحذف كما قال السهيلي لطول الحاجز حسنا ، لحذفت في الأولى وذكرت في الثانية.

ثم تدبر قوله . تعالى .: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ الممتحنة: ١٠، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الممتحنة: ١٢

تجد أن الفاعل في الآيتين :﴿ جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾، ﴿ جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ مؤنث حقيقي التأنيث ، ولم يفصل بينه وبين فاعله بكبير فاصل ، فكان أولى بالتأنيث من الشواهد التي نحن بصددها ، على حد قول السهيلي ومن تبعه؛ إن طول الحاجز يحسن معه حذف التاء ، وجعله علة لذكر التاء في موضع وحذفها في آخر.

ويجدربي أن أشير إلى سر حذفها في آيتي الممتحنة السابق ذكرهما ؛ وإنما حذفت التاء في الموضعين مراعاة للمقام ؛ فالآية الأولى نزلت يوم صلح الحديبية وذلك" أَنَّ رسول اللَّه صَلى الله عليه وسلم صَالَحَ قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ جَاءَ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ، فَلَمَّا هَاجَرْنَ النِّسَاءُ أَبَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرْدَدْنَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ إِذَا هُنَّ امْتُحِنَّ، فَعَرَفُوا أَنَّهُنَّ إِنَّمَا جِئْنَ

رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ..."[1]، والآية الثانية تتحدث عن بيعة النساء ، وهجرة النساء ومبايعتهن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . من الأفعال التي لها مزيد اختصاص بالرجال لا النساء، ولما كان المراد إثبات هذه الأفعال إلى النساء على الوجه الأكمل ، وأنه لا يقل صنيعهن عن صنيع الرجال ، ترك تأنيث الفعل ؛ حتى يلفت النظر إلى أن هجرتهن كهجرة الرجال ، وبيعتهن كبيعة الرجال، فلمثل هذه المعاني تُترك التاء ، ولو كان بسبب طول الحاجز وقصره ، لكان تأنيث الفعل هنا أولى .

أخلص من هذا إلى أن اعتبار طول الحاجز في هذا المقام لا داعي له ، وأن ما ذكره السهيلي لا ينهض علة لحذف التاء وإثباتها في هذا الموضع من المتشابه ،بشواهد من الذكر الحكيم ، وإنما الأولى أن نبحث عن سر آخر.

هذا والعلة الأخرى التي ذكرها السهيلي حسنة جدا، وهي أولى بالأخذ من سابقتها ، ولم أجد أحدا قبله أشار اليها، بل وجدت بعضهم يحذو حذو السهيلي دون زيادة أو نقصان ، كما سيأتي.

وعنده أن الحذف والإثبات مراعاة للمعنى ؛فإن﴿ مَّنْ ﴾في سورة النحل واقعة على الأمة، وهي مؤنثة لفظاً، بدليل قوله . سبحانه . :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ، ثم قال تعالى: : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾.فلما كانت ﴿ مَّنْ ﴾ في هذا الموضع مشار بها إلى الأمة ، وهي مؤنثة ، حسن إلحاق التاء للفعل . أما في الأية الأخرى فالمعنى فيها : وفريقا ضلوا ؛ فحسن حذفها مراعاة للمعنى ، ومراعاة المعاني من الأهمية بمكان ؛ حيث

(١)أسباب النزول ٤٤٥

تجعل الكلام متلاحما ، يقوي بعضه بعضا ، ولا شك أن تلك النكتة التي أشار إليها السهيلي من الحسن بمكان ، وليس فيها ما يمكن الاعتراض عليه، وقد تبعه فيها الزركشي والسيوطي وغيرهما ؛ بنقل الكلام دون زيادة أو نقصان .

الموضع الثالث

إثبات الباء وحذفها من الفعل " سبح "

جعل السهيلي في كتابه فصلا عنوانه " فصلٌ في الاسم والمسمَّى "؛ تحدث فيه عن الفرق بين الاسم والمسمى؛ هل الاسم هو المسمى ؟ أم غيره؟ وتعرض إلى أمور كثيرة ؛ منها مسألة لها علاقة بمتشابه النظم ؛ حيث تحدث عن سر دخول الباء على "الاسم " في قوله . تعالى . ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ الواقعة ، دون دخولها على قوله تعالى :﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ الأعلى .

يقول السهيلي :" **إن قيل: ما فائدة دخول الباء في﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وَلِمَ لم يدخل في ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ؟.**[1]

سؤال السهيلي بيّن ؛ حيث إنه يسأل عن سر إثبات التاء في سورة " الواقعة " ، وحذفها من سورة "الأعلى" ، والنظمان متشابهان في الغرض المسوق له الكلام ؛ ففيهما أمر بالتسبيح ، ووقع التسبيح في كلٍ على اسم المولى . عزوجل . ، ثم جاءت المخالفة بحذف " الباء " في نظم ، وإثباتها في آخر .

وقد علّ السهيليُّ سرَّ تلك المخالفة ، وأجاب على سؤاله السابق فقال:" الجواب:

---

(١)نتائج الفكر ٤٦

أن التسبيح ينقسم قسمين:أحدهما: أن يراد به التنزيه والذكر دون معنى يقترن به. والثاني: أن يراد به الصلاة، وهي ذكر مع عمل، ومنه سميت سُبْحَةٌ[1]، وهو في القرآن كثير؛ قال الله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ الروم وأشار به إلى الصلوات الخمس، وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الصافات، أي: المصلين. فإذا ثبت ذلك وأردت التسبيح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: " سبحت بالله ".وإذا أردت المتضمن لمعنى الصلاة دخلت " الباء " تنبيهاً على ذلك المعنى، فتقول: " سبح باسم ربك "كما تقول: " صل باسم ربك "، أي: مفتَتِحاً باسمه.وكذلك أيضاً دخلت اللام في قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الحديد: الآية١؛ لأنه أراد التسبيح الذي هو السجود والطاعة، كما قال الله . تعالى .: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ النحل: ٤٩ .فهذا يقوي ما تقدم من أن ذكر الاسم ها هنا تنبيه على الذكر بالقلب واللسان، ألا ترى أن الصلاة لا بد فيها من اللفظ باسم الله عند التكبير ولذلك لم يقل: " سبح بربك " تنبيهاً على ما تقدم، والله تعالى أعلم."[2]

مفاد كلام السهيلي أن دخول " الباء " للتمييز بين تسبيح وتسبيح ؛ فإذا أردت تسبيحا بمعنى ذكرالله . عزوجل . ؛ كقولك : سبحان الله ...إلخ قلت :

---

(١)السُّبْحَةُ – الخَرَزُ الَّذِي يُسَبِّحُ بعَدَدِها وَقيل السُّبْحَة الدعاءُ وصلاةُ التَّطَوُّع وعَمَّ بِهِ بعضُهم الصلاةَ وَفِي التَّنْزِيل: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ الصافات: أَي الْمُصَلِّين قبل ذَلِك.المخصص ٥٦/٤

(٢)السابق ٤٦، ٤٧

سبح اسم ربك ، أي عظِّم ونزِّه الله . تعالى . ، وهذا التسبيح لا يحتاج دخول الباء فتقول : سبحت الله ؛ أي ذكرته فلا معنى لدخولها هنا .

وأما إذا أردت تسبيحا مقرونا بعمل وهو الصلاة ؛ لاشتمالها على عمل وذكر ، دخلت الباء ، كقوله:﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ معناها صلِ مفتتحا الصلاة بذكره ؛ فيحمل التسبيح على معنى الصلاة ، واستشهد السهيلي على أن التسبيح قد يراد به معنى الصلاة بقوله :﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.وأشار به إلى الصلوات الخمس، وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ أي: المصلين.وقد ذكر الزمخشري أن التسبيح في هذين الشاهدين بمعنى الصلاة ، ولما كان التسبيح في سورة الواقعة بمعنى الصلاة دخلت الباء تنبيها على هذا المعنى .

هذا وفي الكلام السابق للسهيلي إشارة إلى سر دخول الباء على " الاسم " فلم يقل : سبح ربك" ، فأوقع الفعل على الاسم دون ﴿ رَبِّكَ ﴾ ؛ وعلل ذلك بقوله :" ذكر الاسم ها هنا تنبيه على الذكر بالقلب واللسان، ألا ترى أن الصلاة لا بد فيها من اللفظ باسم الله عند التكبير ولذلك لم يقل: " سبح بربك " تنبيهاً على ما تقدم، والله تعالى أعلم."(١)

مضمون كلامه أن الصلاة لابد فيها من ذكر لله . تعالى . باللسان ؛ ولما كانت الباء داخلة على تسبيح بمعنى الصلاة حسن دخولها على الاسم؛ تنبيها على أهمية ذكر الله . تعالى . باللسان والقلب معا، أي لا يفتر لسانك عن ذكره ، ولا يغيب عن قلبك استحضاره. لأنك إذا قلت : سبح ربك

(١)مفاتيح الغيب ٤٢٤/٢٩

قد يفهم منه تعظيم الله في القلب وخشيته ، دون إشارة للذكر باللسان ، فجاءت الباء لترفع هذا الوهم .

هذا وإذا كان السهيلي جعل الباء للفرق بين تسبيح بمعنى الصلاة ، وبين آخر بمعنى الذكربالسان كما سبق ؛ فإن للفخر الرازي . رحمه الله . قولا آخر ؛ ففي حديثة عن آية سورة الواقعة سأل السؤال السابق للسهيلي فقال: " مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ؟ فنقول: هاهنا تَقْدِيمُ الدَّلِيلِ عَلَى الْعَظَمَةِ أَنْ يُقَالَ: الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ:﴿ بِٱسْمِ ﴾ غَيْرُ زَائِدَةٍ، وَتَقْرِيرُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْأُمُورَ وَقَالَ: نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ، فَاعْتَرَفَ الْكُلُّ بِأَنَّ الْأُمُورَ مِنَ اللَّه، وَإِذَا طُولِبُوا بِالْوَحْدَانِيَّةِ قَالُوا: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ فِي الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا نَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً فِي الِاسْمِ وَنُسَمِّيهَا آلِهَةً، وَالَّذِي خَلَقَهَا وخلق السموات هُوَ اللَّه، فَنَحْنُ نُنَزِّهُهُ فِي الْحَقِيقَةِ فَقَالَ:﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، وَكَمَا أَنَّكَ أَيُّهَا الْعَاقِلُ اعْتَرَفْتَ بِعَدَمِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الْحَقِيقَةِ اعْتَرِفْ بِعَدَمِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الِاسْمِ، وَلَا تَقُلْ لِغَيْرِهِ إِلَهٌ، فَإِنَّ الِاسْمَ يَتْبَعُ الْمَعْنَى وَالْحَقِيقَةَ، وَعَلَى هَذَا فَالْخِطَابُ لَا يَكُونُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ يَكُونُ كَمَا يَقُولُ الْوَاعِظُ: يَا مِسْكِينُ أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ وَمَا أَصْلَحْتَ عَمَلَكَ، وَلَا يُرِيدُ أَحَدًا بِعَيْنِهِ، وَتَقْدِيرُهُ يَا أَيُّهَا الْمِسْكِينُ السَّامِعُ "(١)

يتفق الرازي مع السهيلي في أن الباء جاءت لمعنى يقتضيه السياق ، ولا يصح القول بزيادتها كما قال بعضهم ، بل إن الرازي يجعل العظمة في القول بعدم زيادتها ، وإذا كان الرازي يتفق مع السهيلي في هذا ، فإن توجيهه لمعنى الباء غير توجيه السهيلي ؛ حيث جاءت عند السهيلي للفرق بين

(١) السابق.

تسبيح مجرد عن الصلاة ، وبين آخر يشتمل على الصلاة ، لكنها عند الرازي تحتمل أحد وجهين ؛ أولهما: أنها جاءت بعد سياق طويل من الحديث عن نعم الله . عز وجل . من حديث عن الخلق والحرث والزرع وإنزال الماء من المزن ، ...إلى آخر ما ذكّرهم به من نِعَمٍ ، لا يستطيع أحدهم أن يقول: إنه خالق لنعمة مما سبق ؛ بل يقرون بأنها لله . تعالى . ؛ ثم إنهم يتخذون أصناما ويسمونها آلهة ، فجاءت الباء تنبيها على هذا المعنى ،أي لا تسموا تلك الأصنام آلهة ، وعليه فالخطاب يكون للمشركين .

الوجه الثاني : أن يكون الخطاب موجها لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . ؛ويكون المراد إذا عددت لهم تلك النعم السابقة وتولوا بعد ذلك ، فاذكر اسم ربك بينهم ، ولو جاء النظم بغير الباء لكان المعنى ذكر الله بالقلب ، وليس فيه إشارة إلى الذكر باللسان ، يقول الرزي:" وَثَانِيهِمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذِكْرِ رَبِّكَ، أَيْ إِذَا قُلْتَ: وَتَوَلَّوْا، فَسَبِّحْ رَبَّكَ بِذِكْرِ اسْمِهِ بَيْنَ قَوْمِكَ وَاشْتَغِلْ بِالتَّبْلِيغِ، وَالْمَعْنَى اذْكُرْهُ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ وَبَيِّنْ وَصْفَهُ لَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا فَإِنَّكَ مُقْبِلٌ عَلَى شُغْلِكَ الَّذِي هُوَ التَّبْلِيغُ، وَلَوْ قَالَ: فَسَبِّحْ رَبَّكَ، مَا أَفَادَ الذِّكْرَ لَهُمْ، وَكَانَ يُنْبِئُ عَنِ التَّسْبِيحِ بِالْقَلْبِ، وَلَمَّا قَالَ: ﴿ **فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ ، وَالِاسْمُ هُوَ الَّذِي يُذْكَرُ لَفْظًا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالذِّكْرِ اللِّسَانِيِّ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الذِّكْرِ الْقَلْبِيِّ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: فَسَبِّحْ مُبْتَدِئًا بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَلَا تَكُونُ الْبَاءُ زَائِدَةً." (١)

(١)السابق.

أقول : الوجهان اللذان ذكرهما الرازي لا يتعارضان مع الوجه الذي سبق ذكره عند السهيلي ؛ فلا مانع أن تكون الباء مفيدة كل هذه المعاني ؛ والنكات البلاغية تتلاحق ولا تتزاحم كما هو معلوم .

هذا وكلام السهيلي أُنف في بابه ، لم يُسْبَق إليه ، بل وجدت كثيرا من أهل العلم يأخذ قوله؛ منهم ابن القيم ؛ حيث نقل النص السابق بلفظه دون إشارة(١).ولم يكن ابن القيم وحده الذي فعل ذلك ؛ فقد ورد كلام السهيلي في كتاب " القواعد النحوية : تأصيلا وتفصيلا" لصاحبه عبد الواحد محمد النحو ، والنص موجود هناك فلا داعي لذكره (٢)

ولم يذكر من أخذ عن السهيلي شيئا جديدا يضاف إلى بلاغة "الباء" في الشاهد السابق ، بل اكتفى بالنقل دون زيادة أو مناقشة .

هذا وهناك أمور في النظم لم يتعرض لها السهيلي وهي جديرة بالدراسة ؛ منها إثبات ألف في"﴿ ٱسْمَ ﴾ في الموضعين السابقين ، وحذفها من البسملة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في كل موضع وردت فيه في الذكر الحكيم، ومنها ختم فاصلة سورة الواقعة بـ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، ومجيئها في الأعلى ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾.

أما الأمرالأوّل فقد ذكر الفراء أنها حذفت في البسملة تخفيفا ؛ لكثرة جريانها على اللسان ، بخلاف الموضعين الآخرين ، إذ يقول :" وإنما حذفوها من ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أول السور والكتب لأنها وقعت في موضع

(١) ينظر : بدائع الفوائد ٢٠/١

(٢) ينظر : القواعد النحوية : تأصيلا وتفصيلا ص١٣٨، المؤلف : عبد الواحد محمد النحو، الناشر : دار الكتب العلمية ، تاريخ النشر ٢٠١٥

معروف لا يجهل القارئ معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستُخِفّ طرحُها لأن من شأن العرب الإيجاز وتقليلَ الكثير إذا عُرِف معناه. وأثبتت في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ لأنها لا تلزم هذا الاسم، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى. ألا ترى أنك تقول: «بسم الله» عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكَلٍ أو مشرب أو ذبيحة. فخفّ عليهم الحذف لمعرفتهم به." (١)

وما ذكره الفراء تعليل مقبول؛ فالبسملة تقرأ في مفتتح كل سورة ، وعند بداية كل أمر ، فناسب ذلك حذف الألف ؛ تخفيفا على اللسان ، أما في الشاهدين محل الدراسة فالأمرمختلف ، فليس هناك من داع لحذفها .

وما ذكره الفراء لم يسلم من النقد ؛ يقول الشيخ **محمد طاهر الكردي الخطاط** (المتوفى: ١٤٠٠هـ) . بعد أن تعرض لقول الفراء السابق . :" على أنه مهما ذكروا من التعليلات لحذفها منه فما هو الا من قبيل الاستئناس والتمليح لا غير؛ لأن الحقيقة التى لا تنكر ان كتابة البسملة بهيئتها المعروفة لدينا هي من رسم المصحف العثماني"(٢)

أقول: وما المانع أن يكون للرسم العثماني علة ؛ وإلا لجاء الكلام على وتيرة واحدة ؛ وكم من سر يقع عليه أهل العلم نشأ من هيئة الرسم العثماني.

الأمر الثاني : السر في ختم آية الواقعة بـ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ،ومجيئها في الأعلى ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾. يقول الرزاي : "مَا الْفَرْقُ بَيْنَ ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وَبَيْنَ ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾.، وَهَلْ فِي ذِكْرِ ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾ هُنَا بَدَلَ ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾ ،وَذِكْرِ ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ بَدَلَ ﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فَائِدَةٌ؟ نَقُولُ: أَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ

(١) معاني القرآن ٢

(٢)تاريخ القرآن الكريم ١٦٠

﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ وَ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ فَهُوَ أَنَّ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ يَدُلُّ عَلَى الْقُرْبِ، وَ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ يَدُلُّ عَلَى الْبُعْدِ، بَيَانُهُ: هُوَ أَنَّ مَا عَظُمَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ مُمْكِنٍ، لِأَنَّهُ لَوْ بَعُدَ عَنْهُ لَخَلَا عَنْهُ مَوْضِعُهُ، فَلَوْ كَانَ فِيهِ أَجْزَاءٌ أُخَرُ لَكَانَ أَعْظَمَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ فَالْعَظِيمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُلِّ هُوَ الَّذِي يَقْرُبُ مِنَ الْكُلِّ، وَأَمَّا الصَّغِيرُ إِذَا قَرُبَ مِنْ جِهَةٍ فَقَدْ بَعُدَ عَنْ أُخْرَى، وَأَمَّا الْعَلِيُّ فَهُوَ الْبَعِيدُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّ مَا قَرُبَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ جِهَةِ فَوْقُ يَكُونُ أَبْعَدَ مِنْهُ وَكَانَ أَعْلَى فَالْعَلِيُّ الْمُطْلَقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الَّذِي فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَالْأَشْيَاءُ الْمُدْرِكَةُ تُسَبِّحُ اللَّه، وَإِذَا عَلِمْنَا مِنَ اللَّه مَعْنَى سَلْبِيًّا فَصَحَّ أَنْ نَقُولَ: هُوَ أَعْلَى مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ إِدْرَاكُنَا وَإِذَا عَلِمْنَا مِنْهُ وَصْفًا ثُبُوتِيًّا مِنْ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ يُزِيدُ تَعْظِيمَهُ أَكْثَرَ مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُنَا، فَنَقُولُ: هُوَ أَعْظَمُ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ عِلْمُنَا، وَقَوْلُنَا: أَعْظَمُ مَعْنَاهُ عَظِيمٌ لَا عَظِيمَ مِثْلُهُ، فَفِيهِ مَفْهُومٌ سَلْبِيٌّ وَمَفْهُومٌ ثُبُوتِيٌّ وَقَوْلُهُ: أَعْلَى، مَعْنَاهُ هُوَ عَلِيٌّ وَلَا عَلِيَّ مِثْلُهُ، وَالْعَلِيُّ"(١)

أقول : كلام الرزي غاية في الغموض فهو أقرب إلى كلام المناطقة من كلام البلاغيين ، ولنقف أولا على معنى ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ وَ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ حتى ندرك سر المخالفة .

يقول الزجاج :" الْعَظِيم الْمُعظم فِي صفة الله تَعَالَى يُفِيد عظم الشَّأْن وَالسُّلْطَان وَلَيْسَ المُرَاد بِهِ وَصفه بِعظم الْأَجْزَاء لِأَن ذَلِك من صِفَات المخلوقين تَعَالَى الله عَن ذَلِك علوا"(٢)،ويقول أبو هلال العسكري :" العظيم: الذي جاوز حدود العقول أن تقف على صفات كماله، ونعوت جلاله.وأصل

(١)مفاتيح الغيب ٤٢٤/٢٩

(٢) تفسيرأسماء الله الحسنى ٤٦

العظم في الأجسام ثم استعمل في مدركات البصائر، وهي متفاوتة في العظم تفاوت الأجسام.فما لا يتصور أن يكون يحيط العقل أصلا بكنه حقيقته وصفته منها، فهو العظيم المطلق، وهو الله تعالى."(١)

يقول **أبو البقاء الكفوي (المتوفى:** ١٠٩٤هـ) فقد ذكر أن عظمة الله "عبارَة عَن الِاسْتِقْلَال والاستغناء عَن الْغَيْر"(٢)

من خلال الأقول السابقة ندرك أن معنى ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾جاء منسجما مع السياق الذي سبقه ؛ فقد سبق الحديث عن عدة نِعَم ، ذكرت في مقام امتنان الله على خلقه ؛ من حديث عن الخلق ، والحرث ، وإنزال الماء ، والنار التي يورون ...إلخ ؛ والذي يخلق كل هذا جدير بأن يتصف بالعظمة ، فتجد حسن التوافق بين هذه الفاصلة ، وبين المعاني التي سبق لها ذكر في السورة الكريمة .

ثم تقرأ مطلع سورة الأعلى فتجد الصلة بينه وبين ختام سورة الطارق بيّنا؛ ففي خاتمة الطارق ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ حديث عن القرآن الكريم ؛ فهو قول فصل وليس بالهزل ، فإن قال أحدٌ غير ذلك فالله أعلى وأجل ، ثم تدبر قوله: ﴿١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ وما تجده من تلاحم بين هذه المعاني وبين مطلع سورة الأعلى ؛ والمعنى هم يكيدون ويدبرون ، والله أعلى ، لا يضره كيدهم ، والله أعلم بمراده .

(١) معجم الفروق اللغوية ٣٦٢

(٢) ينظر : الكليات ٦٣١

المسألة الثانية

متشابه النظم في الإفراد والجمع

في حديث السهيلي عن التثنية والجمع تعرض إلى جانب مهم في النظم القرآني ؛ حيث وجد آيات تشابهت تشابها كبيرا في مقصدها ، وطريقة بنائها ، واختيار ألفاظها ، ثم تأتي المخالفة في صيغة كلمة من كلماتها ؛ بالإفراد تارة ، والجمع أخرى ، وبيان هذا فيما يأتي:

إفراد " السماء " وجمعها :

تعرض إلي آيتين جليلتين تتحدثان عن قضية الرزق؛ الآية الأولى وردت في سورة " يونس " وهي قول ربنا ـ عز وجل ـ :﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، والآية الثانية هي قوله ـ تعالى ـ في سورة " سبأ"﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

الأمر لا يحتاج إلى إطالة نظر ليقف القارىء على المغايرة بين الآيتين الكريمتين ؛ ففي سورة "يونس " جاءت كلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ ﴾ بصيغة الإفراد ، وفي سورة" سبأ " جاءت كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ "السماوات" جمعا ، وقد كان مقتضى الظاهر أن تأتي التي وردت جمعا بصيغة الإفراد لسببين ؛ الأول: اتساقها مع ما جاء في سورة يونس من الإفراد ، ولا سيما أن الآيتين اتحدتا في الغرض المسوق له الكلام كما سبق بيانه ، والثاني : أن يتسنى مجيء اللفظين المتقابلين على صيغة واحدة من الإفراد والجمع

، فيقال : السماء والأرض ، بدلا من السماوات والأرض ، على ما هو شائع عند أهل العلم ؛ من ضرورة مراعاة الاتحاد بين المتقابلين إفرادا وجمعا ...إلخ ، ولهذا عاب ابنُ الأثير ــ في حديثه عن "المؤاخاة بين المباني" ــ قولَ مسلم بن الوليد :

نفضت بك الأحلاس نفض إِقَامَة ... واسترجعت نزاعها الْأَمْصَار

فَاذْهَبْ كَمَا ذهبت غوادي مزنة ... أثنى عَلَيْهَا السهل والأوعار [1]

وعلق قائلا :" والأحسن أن يقال: السهل والوعر، أو السهول والأوعار، ليكون البناء اللفظي واحدا، أي: أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الإفراد، ولا يكون أحدهما مجموعا والآخر مفردا."[2]

أقول : هذا حسن في البلاغة ولكنه ليس بواجب ؛ فمجيء اللفظين المتقابلين على صيغة واحدة من الإفراد أو الجمع أمرٌ حسنٌ، ولكنّ الأولى منه والأحسن مراعاة المقام ولو اقتضى هذا المخالفة بين الصيغتين ، وهو الذي جاء عليه الذكر الحكيم في الشاهدين السابقين ، وعلى القاريء أن يتأمل حتى يدرك سر هذا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١)يريد أن العفاة قعدوا عن الاجتداء بعد موتك يأساً ممن يطمع فيه، أو يرجى خيره، فنفضوا أحلاس رواحلهم نفض من يقيم في بلاده ويطرح الترحال. وقوله استرجعت نزاعها ممن يتعطف عليهم، أو يصطنعهم وينظر لهم، فكأنهم كانوا ودائع الأمصار عنده مدة مقامهم ببابه فارتجعتهم. والنزاع: جمع نازع، وهو البعيد والغريب جميعاً،... والغوادي: السحابات التي تنشأ غدوةً، وكأنه أراد أقطاعاً منها، وأضافها إلى المزنة لأنه منها تجتمعن فكملت مزنةً. ويجوز أن يكون المراد بالغوادي أمطاراً تصوب غدوةً، وأضافها إلى المزنة. ينظر: شرح ديوان الحماسة٦٦٦

(٢)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر١٥٧/٣

وقد وقف السهيليُّ عند تلك المغايرة فقال: "فإن قيل: فَلِمَ قال في سورة سبا: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وفي سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهل في النظم المعجز ما يقتضي فرقاً بين الموضعين؟

قلنا: نعم، قد يرد لفظ السماء عبارة عن كل ما علا من السماوات فما فوقها إلى العرش ، وغير ذلك من المعاني العلوية المختصة بالربوبية، فيكون اللفظة بصيغة الإفراد كالوصف المعبر به عن الموصوف، كما تقدم في الوصف قبل هذا.وقد يكون السماء عبارة عن السماء الدنيا عرفا، ويكون عبارة عن السحاب الذي ينزل منه الماء، وكان المخاطبون بهذه الآية – أعني التي في يونس – مقرين بنزول الرزق من هذه السماء – أعني الرزق المحسوس كالغيث ونحوه وقد قال في آخر الآية:﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فلما انتظم هذا الكلام بما قبله لم يصلح في النظم إلا ذكر السماء مفردة؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الرزق المعقول والرحمة بالعباد كالوحي الذي به حياة الأرواح والأجساد، بل ينكرون ذلك، فوردت السماء فيها بلفظ الإفراد، بخلاف الآية الأخرى، فإنه لم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من الرزق، ولكنه قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ .فأمر نبيه بهذا القول الذي هو تصديق لنزول الرزق، والخبر هو الحكمة والعلم – وهو أفضل الرزق – من فوق سبع سماوات، وأما الرزق من الأرض فيصلح ذكره في الاثنين

جميعاً، إذ لا ينكر رزق الأرض وما ينزل من الغيث من هذه السماء برٌ ولا فاجرٌ، بل يعترف به المؤمن والكافر."[1]

لله در السهيلي أن هُدي إلى هذا السر؛ الذي لا يصل إليه إلا من هُدِي إلى الطيب من القول ، فهو كلام يكتب بمداد التبر لا بالحبر .

وما ذهب إليه الرجل قائم على تتبع سياق الآيتين ، فهو المصباح الذي أرشده إلى ذلك السر ؛ وبيان ذلك أنك إذا نظرت إلى سياق آية " يونس " تجد سياقا جاء للاحتجاج عليهم بما يقرون به ؛ من أن الله رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم ، ومخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، ومدبر أمرهم ؛ فإذا كانوا مقرين بهذا ثبت الاحتجاج عليهم ، وأما ما يتعلق بإفراد السماء في الآية فإن السهيلي يذهب إلى أن السماء تطلق على كل ما علا من السماوات إلى العرش ، أو السماء الدنيا التي هي السحاب الذي ينزل المطر ، وهو المراد في هذا المقام ، فلما كان القوم مقرين بأن الله منزل المطر ـــ وهو الرزق المحسوس لهم ـــ ، ولا يقرون بما دون ذلك من رزق خفي ينزل من عند الله تعالى كالوحي والرحمة ...إلخ ناسب ذلك إفراد السماء التي تنسجم مع ما يقرون به .

أما في سورة سبا فالأمر مختلف ؛ فإن الحديث عن النوع الثاني من الرزق الذي لا يقرون به ، فالأول رزق في صورة مطر ينزل، ثم زرع يخرج ، أما الثاني الذي ينزل من السماوات فهو ما سبقت الإشارة إليه من الحكمة والخير والقرآن ...إلخ ، وهم لا يقرون بشيء من هذا كله ، لذا لم يترك ربنا لهم الجواب كالآية السابقة ، وإنما جاء الجواب من النبي ـــ

(١)نتائج الفكر ١٦٢،١٦١

صلى الله عليه وسلم ــ، وهو بلا شك معنى دقيق ، وقد أفدت في بيان كلام السهيلي من الزركشي ؛ فقد أخذ الثاني كلام الأول وزاده إيضاحا و بيانا فقال :" السِّيَاقُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا مُرْشِدٌ إِلَى الْفَرْقِ ؛ فَإِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي فِي يُونُسَ سِيقَتْ لِلِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ ؛ مِنْ كَوْنِهِ تَعَالَى هُوَ رَازِقُهُمْ ،وَمَالِكُ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورِهِمْ بِأَنْ يُخْرِجَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، فَلَمَّا كَانُوا مُقِرِّينَ بِهَذَا كُلِّهِ حَسُنَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ عَلَيْهِمْ إِذْ فَاعِلُ هَذَا هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ هُمْ يُقِرُّونَ بِهِ وَلَا يَجْحَدُونَهُ وَالْمُخَاطَبُونَ الْمُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِنَّمَا كَانُوا مُقِرِّينَ بِنُزُولِ الرِّزْقِ مِنْ قِبَلِ هَذِهِ السَّمَاءِ الَّتِي يُشَاهِدُونَهَا وَلَمْ يَكُونُوا مُقِرِّينَ وَلَا عَالِمِينَ بِنُزُولِ الرِّزْقِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَيْهِمْ فَأُفْرِدَتْ لَفْظَةُ السَّمَاءِ هُنَا لِذَلِكَ ، وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي فِي سَبَأٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَظِمْ لَهَا ذِكْرُ إِقْرَارِهِمْ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ولهذا أمر رسوله بأن يجيب وأن يَذْكُرْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُجِيبُونَ فَقَالَ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: "فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ" أَيِ اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يُنْزِلُ رِزْقَهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ وَمَنَافِعِهِ من السموات"(١)

كلام الرجلين يخرج من مشكاة واحدة ؛ فكلاهما نظر إلى السياق ، فهو الذي أملى بسر هذا التغاير بين الصيغتين ، فالأوّل حديث عن رزق ينزل من السماء في صورة مطر؛ به يخرج الرزق من الأرض ، وهو مقرون بأن فاعل ذلك هو الله ، فناسب ذلك التعبير بلفظ السماء مفردا ، الذي يراد به السماء الدنيا التي ينزل منها المطر، أما في آية "سبأ"

(١)البرهان في علوم القرآن ٩/٤

فالحديث عن رزق أعظم كالوحي والرحمة ...إلخ ، وهو يشمل سماء الدنيا وما فوقها حتى العرش ، وهم لا يقرون بذلك

فناسب هذا جمع السماء .

هذا وقد بحثت عند أهل العلم قبل السهيلي فما وجدت ـــ فيما أعلم ـــ أحدا أشار إلى هذه النكتة الرائعة قبله ، لذلك ختم حديثه قائلا : "فتأمل ما ذكرته من هذه النكث فإنها أُنف لم أزاحم عليها ولا وجدتها لأحد تقدمني إليها، والله الموفق لشكر يقتضي الزيد من فضله، وهو حسبنا ونعم الوكيل."(١)

بالفعل هي نكتة أنف لم يزاحمه فيها أحد ، هي من الأمور التي انفرد وسبق إليها ، وكل من قال بها قد أفاد من الرجل .

هذا ومما يجدر الإشارة إليه أن ابن الزبير الغرناطي له في المسألة رأي آخر ؛ فليست المخالفة مراعاة للسياق كما كان عند السهيلي ؛ بل ذهب إلى أن السر في إفراد ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ يرجع إلى أن المعنى قد تمّ به ، مع ما في الإفراد من الإيجاز، فلا حاجة إذا للجمع، وأما سرُّ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في "سبأ" فمن باب مراعاة الجمع للجمع في سياق واحد؛ حيث سبق وأن جاءت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمعا في آية سابقة على الشاهد الذي معنا .

يقول الغرناطي : " والجواب عنه أن الإفراد الوارد فى آية يونس محصل للمعنى مع الإيجاز؛ فورد هنا على ما يجب، وأما الوارد فى سورة سبأ على الجمع فروعى فيه ما تقدم من قوله تعالى:﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ

(١) نتائج الفكر ١٦٢،١٦١

زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ سبأ، والمراد بذلك نفى الشركاء له تعالى ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضا فقال تعالى:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على الجمع مناسبة إذ الآية قبل وهذه فى قضية واحدة وهى نفى الشركاء والأنداد فجاءت على ما يناسب التى قبلها."(١)

ما ذكره الغرناطي حسنٌ لكنه لم يسلم من النقد ؛ يقول الأستاذ الدكتور : محمد الأمين الخضري ـ رحمه الله ـ :"والحق أنني مع عدم قناعتي التامة بأن التناسب اللفظي وراء هذا الإفراد والجمع في الموضعين ، فإنني لا أستطيع أن أنكر أن تجاوب أطراف النظم في السورتين بالإفراد والجمع أحد وجوه البيان في المغايرة بين الصيغتين ، ليس لأن آية " سبأ "تناسبها جمع السموات في الآية التي سبقتها فحسب ، كما قال الغرناطي ، وإنما لأن في السورتين من متشابه النظم ما تعانق فيه الجمع مع الجمع ، والمفرد مع المفرد ، فقال ـ تعالى ـ في سورة يونس :﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ يونس ، وقال في سورة " سبأ" ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ سبأ

ما أراه في اقتضاء سورة" سبأ" المبالغة بالجمع حيث الإنكار فيها أشد ، والمجادلون أكثر إصرارا على كفرهم وتكذيبهم ، يدلك على ذلك في

(١) ملاك التأويل ٢٤١

الموضع الأول منها تصدير الآية بقوله ـ تعالى ـ :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ ﴾ ، مما جعل رد الرسول ـ كما أمر به ـ حافلا بأدوات التوكيد ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾

وفي الموضع الثاني : وهو قوله : ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ لم يجيبوا عليه بما يدل على إقرارهم بالحقيقة التي لا ينكرها أحد ، فأمر الله ـ تعالى ـ رسوله أن يجيب عنهم﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ويسلك معهم سبيل التعريض بضلالهم على طريقة الكلام المنصف ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾.

أما الموضع المشابه له من سورة يونس ، فقد كان المشركون فيه أقل عنادا حين أجابوا بأنفسهم مقرين بأن الرازق هو الله ، كما نطق به القرآن : ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ والموضع الثاني منها كان الخطاب فيه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١ ﴾"[1]

بعد ذلك نقل الشيخ الخضري كلام السهيلي واستحسنه وعلق عليه قائلا :" حقا إنها أنف ، لم يسبق إليها ، ولم يزاحمه فيها سابق ولا لاحق "[2]

(١) ينظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ٢٠١وما بعدها.

(٢) السابق .

المسألة الثالثة: متشابه النظم بالتقديم والتأخير

التقديم والتأخير من أهم مباحث علم البلاغة ، فهو على حد قول الشيخ عبد القاهر :" بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المَحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بكَ إلى لَطيفة، ولا تَزال تَرى شِعراً يروقُك مسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقكَ ولطفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان."(١)،

ويبدو أن السهيلي كان متاثرا بعبد القاهر في هذا الجانب من البلاغة ؛ حيث نقل ما نقله الجرجاني عن سيبويه :" أنهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، وهو ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم."(٢)

أيضا تأثر به في بيان أنه لا يكفي أن نقول: إنهم يقدمون للعناية والاهتمام ؛ كما جاء عند عبد القاهر " وقد وَقعَ في ظنونِ الناسِ أَنَّه يكفي أنْ يقالَ: "إنه قُدِّم للعناية، ولأنَّ ذكْرَه أَهمُّ"، مِنْ غير أن يُذْكَر، مِنْ أين كانت تلك العنايةُ؟ وبمَ كانَ أهمَّ؟ ولِتخيُّلِهم ذلك، قد صَغُر أمرُ "التقديمِ والتأخيرِ" في نفوسهم، وهَوَّنوا الخَطْبَ فيه، حتى إنك لتَرى أكثرَهم يَرى تَتبُّعَه والنظرَ فيه ضرباً من التكلُّف. ولم ترَ ظنّاً أَزرى على صاحبهِ من هذا وشبهه...و ليتَ شِعْري، إن كانت هذه أموراً هيّنة، وكان المدى فيها قريباً والجَدى يسيراً، من أينَ كانَ نَظْمٌ أشرَفَ من نَظمٍ؟ وبِمَ عَظُمَ التفاوتُ، واشتدَّ التباينُ، وتَرقَّى الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أن يَقْهر أعناقَ الجبابرة؟ أو ههنا أمورٌ أُخَرُ نُحيلُ في المزيّةِ عليها، ونَجْعلُ الإعجاز كان بها، فتكونَ تلكَ الحوالةُ لنا عذْراً في تركِ النَّظرِ في هذهِ التي معنا، والإعراضِ عنها، وقلَّة

(١)دلائل الإعجاز ١٠٦

(٢)دلائل الإعجاز ١٠٧، نتائج الفكر ٢٦٦

المبالاةِ بها؟ أَوَ ليس هذا التهاونُ، إنْ نَظَر العاقلُ، خِيانةً منه لِعقله ودينهِ، ودخُولاً فيما يُزري بذي الخَطَر، ويغضُّ من قَدْر ذَوي القَدر؟..."[1]

فأخذ السهيلي يبين ضرورة الوقوف على سر تقديم ما قُدِّم ، ولا يكفي قولهم قُدِّم للعناية والاهتمام به ؛ فقال :"" وهو كلام مجمل يحتاج إلى بسط وتبيين.فيقال: متى يكون أحد الشيئين أحق بالتقديم ويكون المتكلم ببيانه أعنى؟والجواب: أن هذا أصل يجب الاعتناء به، لعظم منفعته في كتاب الله تعالى.وحديث رسوله – صلى الله عليه وسلم – إذ لا بد من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدم في القرآن وتأخير ما أخر، كنحو: ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ﴾.و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، و ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾و ﴿ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ في أكثر الآي.وفي بعضها: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ وتقديم السماء على الأرض في الذكر، وتقديم الأرض عليها في بعض الآي ، ونحو قوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ، ولم يجئ: (عليم سميع) ، وكذلك: (﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، و ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وفي آية أخرى: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة، لأنه كلام الحكيم الخبير."[2]

هذا وقد ذهب السهيلي إلى أن تقديم الكلام على اللسان يكون على حسب تقديم المعاني في النفس ، والمعاني عنده تتقدم بأحد خمسة أشياء" إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال. فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخَلَد والفكر بأحد هذه الأسباب

(١)ينظر دلائل الإعجاز ١٠٩

(٢)نتائج الفكر ٢٦٦

الخمسة، أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك. نعم، وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى."(١)

ثم أخذ الرجل يتعرض لشواهد قُدِّم فيها اللفظ لواحد مما سبق أو أكثر ، ثم أخذ يجلِّي أسرارها ، وسأكتفي من تلك الشواهد بما جاء متشابها في النظم من آي الذكر الحكيم ؛ حيث إنه محل الدراسة ، وقد جاء هذا في عدة مواضع وبيانها فيما يلي :

الموضع الأول : تقديم الجن على الإنس وعكسه.

في حديث السهيلي عن تقديم اللفظ لفضله وشرفه تعرض لما تشابه نظمه من تقديم الإنس على الجن وعكسه ؛ فقال :" ومنه تقديم ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على ﴿ٱلْإِنسِ﴾ في أكثر المواضع(٢)؛ لأن الجن يشتمل على

---

(١)السابق ٢٦٧

(٢) لم يذكر السهيلي المواضع التي وردت في القران و قُدِّم فيها لفظ الجن " على " الإنس" وهي كثيرة ؛ يطول المقام بذكرها، منها على سبيل المثال لا الحصر " ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأنعام: ١٣ ، وقوله: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٨ وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقوله :﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ النمل: ١٧، وقوله :=

الملائكة وغيرهم مما اجتن على الأبصار، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ الصافات: ١٥٨ .وقال الأعشى:

وسَخَّرَ من جِنِّ الملائِكِ تِسعةً ... قِياماً لَدَيْهِ يَعْمَلونَ بلا أَجْرِ

وأما قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ الرحمن. وقوله تعالى: ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ الرحمن. وقوله: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ الجن. فإن لفظ الجن هاهنا لا يتناول الملائكة بحال، لنزاهتهم عن العيوب، وأنهم لا يتوهم عليهم الكذب ولا سائر الذنوب. فلما لم يتناولهم عموم لفظ الجن، لهذه القرينة، بدأ بلفظ الإنس لفضلهم وكمالهم."(١)

مفاد كلام السهيلي أن تقديم ﴿ ٱلْجِنِّ ﴾ على ﴿ ٱلْإِنسِ ﴾ جاء في مواضع كثيرة من القران الكريم ؛ وإنما قدم لفضل الجن وشرفهم على الإنس ؛ وعنده لفظة الجن تشمل الملائكة واستشهد ببيت الأعشى السابق ذكره ، فلما اشتمل لفظ الجن على الملائكة وغيرهم حسن التقديم ؛ لفضل الملائكة وشرفهم .

= وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فصلت: ٢٥ ، وقوله :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ فصلت: ٢٩، وقوله:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ الأحقاف: ١٨، وقوله :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ ، وقوله :﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ الناس: ٦...إلخ.

(١)نتائج الفكر ٢٧٠ ، ٢٧١

عرض ونقد :

ما ذهب إليه السهيلي يقتضي أمرين :

**الأول :تفضيل الملائكة على البشر على جهة العموم ، وهذا من المختلف فيه عند أهل العلم ؛ يقول القرطبي:" اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، أَيُّهمَا أَفْضَلُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ بَنُو آدَمَ عَلَى قَوْلَيْنِ ... قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَلَا طَرِيقَ إِلَى الْقَطْعِ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا الْقَطْعُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، لِأَنَّ طَرِيقَ ذَلِكَ خَبَرُ اللَّهِ تَعَالَى وَخَبَرُ رسوله أو إجماع الامة، وليس ها هنا شي مِنْ ذَلِكَ،" [(١)]،وقال في موضع آخر:" وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَالْكَلَامُ لَا يَنْتَهِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى الْقَطْعِ. وَقَدْ تَحَاشَى قَوْمٌ مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذَا كَمَا تَحَاشَوْا مِنَ الْكَلَامِ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ ..."[(٢)]

الثاني: وهو الأهم ؛ أن لفظة ﴿ ٱلۡجِنِّ ﴾عنده تشمل الملائكة والجن؛ مما يعني أن تقديم الجن على الإنس في كل موضع جاء في كتاب الله ـ تعالي ـ يقتضي أن يكون التقديم للفضل والشرف .

أقول : هذا مما لا تميل إليه نفسي ، ولا يقبله بحث ؛ حيث إن من يتتبع المواضع التي اجتمع فيها اللفظان ، وقدم فيها الجن على الإنس ، تجد غير ما قاله السهيلي ؛ وبيان ذلك أن اللفظتين جاءتا في مواضع كثيرة كما أشار هو ، لكن ليس كل موضع قُدَّم فيه الجن على الإنس ، يكون لفظ الجن شاملا للملائكة وغيرهم ؛ ومن ثَمّ يكون التقديم للفضل

---

(١)الجامع لأحكام القرآن ٢٨٩/١

(٢) السابق ٢٩٤/١٠

والشرف ؛ فـإيُّ فضل وإيُّ شرف ينسب للفظ ﴿ ٱلْجِنِّ ﴾المقدم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾؟! الأعراف: ١٧٩ وأيُّ مزية لهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ فصلت: ٢٩ ، وقوله :﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ هود: ١١٩ .وقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ؟! السجدة: ١٣ ؛ فهل هناك مقامات تحمل ذما وتوبيخا كهذا ؟ !وهل من المعقول أن نجعل كلمة الجن تشمل الملائكة في هذه المقامات ؛ حتى يتسنى لنا أن نقول ما قاله السهيلي هذا مما قُدم فيه اللفظ للفضل والشرف ؟.

هذا وقد أفدت في ذلك مما ذكره الشيخ المطعني في أخذه على ابن الصائغ والسيوطي ؛ في تقديم﴿ ٱلْجِنِّ ﴾على ﴿ ٱلْإِنسِ ﴾ وعكسه في الذكر الحكيم إنما يكون لفضل المقدم وشرفه ؛ وبيّن تحرير القول في هذه المواضع أن يدار الأمر فيها من حيث التقديم والتأخير على غير هذا الوجه ، وضرب لذلك شواهد.(١)

إن تمام القول هنا أن أبيّن أمرين مهمين :

الأول : لا مانع من إطلاق لفظة الجن ويراد بها الملائكة ؛ لأن لفظ الجن يراد به ما استتر وغاب؛ يقول ابن سيده المتوفى ٤٥٨هـ :" وَكَانَ أهل الْجَاهِلِيَّة يسمون الْمَلَائِكَة عَلَيْهِم السَّلَام جِنّا لاستتارهم عَن الْعُيُون، قَالَ الْأَعْشَى يذكر سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام:

(١)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية٢/١١٥

وسَخَّرمن جِنّ الملائك تِسعةً ... قيَاما لَدَيْهِ يعْملُونَ بِلَا اجْرِ

وَقد قيل فِي قَوْله:﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ الكهف: ٥٠ إِنَّه عَنى الْمَلَائِكَة. "[1]،لكن يجب التنبه إلى أن هذا إن صح في بعض المقامات فلا يصح فيها كلها ، والمعول عليه في ذلك إنما هو السياق؛ فهو إن صح في مواضع فلا يستقيم في كل موضع .

الثاني : أن الأولى أن يكون الحكم قائما على أساس من الدقة ، وتتبع للسياق ، فهو الذي يملي عليك سر التقديم ، فكل سياق له ما يناسبه ، ولا يصح أن نجعل مما قاله السهيلي حكما عاما على كل موضع اجتمع فيه اللفظتان .

هذا ومما أحسن فيه السهيلي وأجاد تعليله سرَّ تقديم ﴿ٱلْإِنسِ ﴾ على ﴿ٱلْجِنِّ ﴾في المواضع السابقة ؛ حيث كان تفسيره قائما على دقة التأمل ، ومتابعة السياق للآيات ، فهو المبيّن سر هذا التقديم ، فبيّن أن لفظة ﴿ٱلْجِنِّ ﴾في هذه السياقات لا تشمل الملائكة بأي حال من الأحوال ؛ حيث إنه حديث عن طمث النساء ـ أي جماعهن ـ، وسؤال عن الذنب ، وكذب على الله تعالى ، وهذا أعلق رحما ، وأقرب نسبا بالإنسان، فكان الأولى تقديمه على الجن ، ولا يصح اشتمال لفظة الجن على الملائكة هنا؛ حيث إنهم معصمون من هذه الأفعال ، بهذا يتبين لنا أن السهيلي كان موفقا في الجزء الثاني من كلامه ، وليت صدر كلامه جاء على منوال آخره .

(١)المحكم والمحيط الأعظم ٢١٦/٧

هذا وقد بحثت كثيرا عند أهل العلم ، فما وجدت أحدا ـ فيما أعلم ـ سبق إلى هذا المعنى الذي أشار إليه السهيلي من تقديم لفظ ﴿ٱلْإِنسِ﴾ على ﴿ٱلْجِنِّ﴾ ، بل رأيت كثيرا قد أفاد مما قاله السهيلي ؛ فقد اخذ شمس الدين ابن قيم الجوزية الكلام بفصه ونصه دون إشارة،وكان كثير النقل عنه كما مضى ."[1]

وقريب منه قول البقاعي ت ٨٨٥هـ:" وقد سئل المحسن عن حسنته سؤال تشريف له وتنديم لمن دونه. ولما كان الإنس أعظم مقصود بهذا، ولهذا كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، وكان التعريف بالشاهد المألوف أعظم في التعريف، وكان علم أحوال الشيء الظاهر أسهل، قدمهم فقال: ﴿إِنسٌ﴾ "[2]،وإلى هذا أشار السيوطي في حديثه عما قدم في القرآن للفضل والشرف؛ حيث قال :" وَتَقْدِيمُ ﴿ٱلْإِنسِ﴾على ﴿ٱلْجِنِّ﴾حَيْثُ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ..."[3]

اعتراض على ماسبق :

إذا كان السهيلي ومن تبعه قد بيّنوا سر تقديم﴿ٱلْجِنِّ﴾على ﴿ٱلْإِنسِ﴾ ، وأنه مما قدم للفضل والشرف ، فإن صلاح الدين خليل بن كيكلدي (المتوفى: ٧٦١هـ) له في المسألة قول آخر ؛ حيث ذكر قول السهيلي ثم قال :" وَجعل السُّهيْلي رَحمَه الله من ذَلِك تَقْدِيم ﴿ٱلْجِنِّ﴾على ﴿ٱلْإِنسِ﴾ فِي غَالب الْمَوَاضِع ؛ قَالَ: لِأَن الْجِنّ يَشْمَل الْمَلَائِكَة وَغَيرهم

(١) ينظر : بدائع الفوائد ٦٣/١

(٢) نظم الدرر ١٧٩/١٩

(٣) الإتقان في علوم القران ٤٠/٣

مِمَّا اجتن على الْأَبْصَار قَالَ تَعَالَى:﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ وَالْمرَاد بهم الْمَلَائِكَة، قلت: وَهَذَا يرد عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى:﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ الْآيَة فَإِن الْمَلَائِكَة لَا يدْخلُونَ فِي لفظ الْجِنّ فِي هَذِه الْآيَة قطعا ، وَقد قدمهم فِي اللَّفْظ، فَالَّذِي يظْهر أَن تَقْدِيم الْجِنّ على الْإِنْس من التَّقَدُّم بِالزَّمَانِ؛ لأَنهم خلقُوا قبل بني آدم ، وَحَيْثُ قدم ﴿الْإِنسِ ﴾فِي تِلْكَ الْآيَات يكون تَقْدِيمًا بالشرف والكمال"[1]

أقول : ما ذكره بن كيكلدي له وجهة ، لكنه لا ينهض في اعتراضه على السهيلي ؛ حيث يمكن دفع هذا الاعتراض بسهولة ويسر ؛ وذلك أن السهيلي لم يقل: إن كل موضع قُدِّم فيه ﴿الْجِنِّ ﴾على ﴿الْإِنسِ ﴾في الذكر الحكيم يكون التقديم فيه للفضل والشرف؛ وإنما قال :" في أكثر المواضع "، وهذا مما يدفع تلك الشبهة ، فكلام السهيلي قائم على الغالب وليس الكل .

إن تمام القول في هذه المسألة أن ننظر كل شاهد في إطار سياقه ،وإن شئت جمعت كل نظير إلى نظيره ، ثم يدرس دراسة وافية ، من خلالها يلوح لنا أسرار النظم القرآني ، أما دراسة سياق واحد ثم تعميم الحكم على سائر السياقات التي تبدو متشابهة فقد يخرج الحكم عن حيز الصواب .

أيضا أرى أنه يمكن أن يقدم اللفظ لأكثر من غرض ؛ فليس بالضرورة أن نحصر علة الشيء في نكتة واحدة ، وما المانع أن يجتمع أكثر من غرض على شاهد واحد ، وكما يقول أهل العلم : النكات البلاغية

(١)الفصول المفيدة في الواو المزيدة ١١٥

تتلاحق ولا تتزاحم ، وهذا ما أشار إليه السهيلي ؛ كما سيأتي في تقديم السماء على الأرض .

الموضع الثاني : تقديم السماء على الأرض وعكسه.

من المواضع التي تشابهت في نظمها ، وأشار إليها السهيلي في حديثه عما قُدِّم لفضله وشرفه ، ما جاء في القرآن الكريم من تقديمٍ للفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أكثر المواضع ، ثم تأتي المخالفة بتقديم لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في مواضع أخرى ؛ يقول السهيلي:" وأما تقديم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ فبالرتبة أيضاً وبالفضل والشرف." "(١)

يفهم من كلام السهيلي أن لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ يأتي مقدما على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في كتاب الله ـ تعالى ـ في أكثر المواضع ؛ وعلله بأنه مما قُدِّم فيه اللفظ للفضل والشرف ، فهذا هو الأصل الذي يأتي عليه اللفظان عنده.

هذا غير أنك تجد سياقين متشابهين في غرض ما ، واجتمع فيهما لفظ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مع ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ ، وقدمت ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في أحدهما على خلاف الأصل الذي قرره السهيلي ؛وإنما يكون ذلك لنكتة كما سيأتي .

ففي قوله ـ تعالى ـ في سورة يونس :﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ

(١)نتائج الفكر ٢٧٠

مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ يونس، اجتمع لفظ ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ مع ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ " وقدمت ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ على غير الأصل الذي قرره السهيلي ، ثم تجد سياقا متشابها في سورة "سبأ": ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ سبأ: بتقديم لفظ ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ؛ وهو ما يدعو للتساؤل عن سر تلك المغايرة ؛ فالنظمان يدوران في فلك واحد ؛ ففيهما إشارة إلى سعة علم الله ـ عز وجل ـ فلا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وإذا كان الآيتان متشابهتين إلى هذا الحد ؛ فما سر المغايرة بتقديم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ في يونس ، وتأخيرها في سبأ؟!

وقد وقف السهيلي عند سياق الآيتين ؛ ليصل منه إلى سر تلك المغايرة فقال :" وأما تقديم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ من قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فبالرتبة، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله تعالى: :﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾.فاقتضى حسن النظم تقديمها مرتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها، بخلاف الآية التي في " سبأ "، فإنها منتظمة بقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾." (١)

إذا كان الرجل فيما سبق قد بيّن أن السماء تقدم على الأرض للفضل والشرف ، ففي تقديم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ عليها في سورة يونس للرتبة ؛ وهي مراعاة المعاني لبعضها ، فالحديث هنا عن المخاطبين ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ

(١) السابق .

مِنۡ عَمَلٍ ﴾. ، وبيان أن ما يفعلونه لا يغيب منه على الله مثقال ذرة ؛ ولما كانت الأرض موطن إقامتهم ، ومسرح أعمالهم ، وكان الغرض المسوق له الكلام بيان أن ما يفعلونه لا يخفى على الله منه شيء ، وكانت الأرض مكان أفعالهم ، ناسب ذلك أن يقدم في اللفظ ما له صلة بالمخاطبين وهو الأرض ، فالتقديم هنا للرتبة ، حتى يأتي الكلام مترابطا ، ولو قُدَّم لفظ السماء على الأرض في هذا المقام لم يكن لتقديمه فائدة ، بل يذهب بتناسق الكلام ، ويغيب ترابطه.

ومراعاة ترابط الكلام وتناسقه من الأهمية بمكان ؛ فهو جدير بتقديم لفظ على آخر ، واختيار كلمة دون أخرى ؛ يقول ابن الأثير :" واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني، ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر، وكان المعنى المفضول مناسبا لمطلع الكلام، فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت؛ لأنك إن قدمت الأفضل فهو من التقديم، وإن قدمت المفضول؛ فلأن مطلع الكلام يناسبه.وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضًا واردٌ في موضعه"(١)، وذكر لذلك شواهد من الذكر الحكيم منها الآية محل الدراسة فقال :" فإنه إنما قدم الأرض في الذكر على السماء ومن حقها التأخير؛ لأنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم، ووصل ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يَعۡزُبُ ﴾لاءم بينهما، ليلي المعنى المعنى.فإن قيل: قد جاء تقديم﴿ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ ﴾ في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن!! قلنا: إذا جاءت مقدمة في الذكر، فلا

(١)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٨٥/٢

بد لتقديمها من سبب اقتضاه، وإن خفي ذلك السبب، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض!"(١)

ما ذكره ابن الأثير في سر تقديم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ هو من باب مراعاة الترابط بين المعاني الذي سبقت الإشارة إليه ، والذي عبر عنه بقوله :" لاءم بينهما، ليلي المعنى المعنى."، ثم أشار ابن الأثير إلى مسألة مهمة ؛ أن تقديم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ ﴾ في الذكر جاء في مواضع ، وما من تقديم إلا وله سبب اقتضاه ؛ ففتِّش عنه ، وقد يصل إليه بعض العلماء دون بعض ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ولعل ابن الأثير يشير إلينا من طرف خفي ألا نقتصر على السر الذي أشار إليه في الآية موضع الشاهد ؛ فكل سياق له ما يناسبه .

هذا وأما عن سر تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾على ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة "سبأ" فقد علله السهيلي بقوله :" فإنها منتظمة بقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ ." ؛ فكما قدم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ هناك مراعاة لترابط المعاني ، قدم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ في " سبأ " للغرض نفسه ؛ ففي هذه الآية حديث عن تكذيب الكافرين بالساعة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ ، والساعة إنما تبدأ من السماء ؛ قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الزمر، فناسب ذلك تقديمها في اللفظ ليحصل الترابط بيّن المعاني.

(١)السابق .

هذا ولا أبالغ إذا قلت : إن السهيلي قد تأثر بالزمخشري ـ رحمه الله ـ؛ في بيان الفرق بين الآيتين ؛حيث ورد في الكشاف في تفسيره آية يونس :" فإن قلت: لم قدّمت ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، بخلاف قوله في سورة سبأ : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؟ قلت:حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لاءم ذلك أن قدّم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ على﴿ٱلسَّمَآءِ ﴾ "(١)

قول السهيلي لا يخرج كثيرا عن قول الزمخشري؛ ففي كلٍ تأكيد على أنه لاءم بين المعاني ؛ ليأتي كل معنى مع ما يناسبه .

هذا ولم يكن الزمخشري والسهيلي أول من أشار إلى هذه المعاني الرائعة ، فقد سبقهما إليها الخطيب الإسكافي ؛ فقد أشار إلى ما أشار إليه الرجلان وزيادة ؛ حيث قال :" إنما قدّم ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾على ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة سبأ لأن هذه الآية مبنية على مفتتح السورة، وهو: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾سبأ: ١ ، فقدّم ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ لأن ملكها أعظم شأنا وأكبر سلطانا، وكذلك الآية التى بعدها من سورتها".وأما التى في سورة يونس فإنها جاءت عقيب قوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد

(١) الكشاف ٢/٣٥٥

من خير أو شر، وذلك في الأرض، فأتمه بقوله:﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فاستوعب جميع ما في الأرض، ثم أتبعه ذكر السماء، لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها، وما يعمل العباد فيها، فلذلك قدّمت ﴿ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ عليها."(١)

مفاد كلام الرجل هو بعينه ما سبقت الإشارة إليه في حديث الزمخشري والسهيلي ، فمراعاة المعاني لبعضها هو السبب في تقديم اللفظ تارة وتأخيره أخرى ؛ فسورة " سبأ" فتحت بحمد الله ، والذي يناسب ذلك تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ؛ فهي أشد خلقا ، ومسكن الملائكة ، فهي داعية للحمد أكثر من الأرض ، وعليه قدمت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ في الموضع الثاني من السورة نفسها ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ ﴾ "سبأ"، فالكلام عن آلهة يدعونها من دونه تعالى ، وبيان عجزهم ، وليس بإمكانهم أن يملكوا مثقال ذرة ، ولا شك أن التحدي بالسماء في هذا المقام أشد ، فناسب ذلك التقديم .أما التي في سورة يونس فهي مبنية على مراعاة حال المخاطبين كما سبق .

هذا وهناك أقوال للزركشي والسيوطي والألوسي وغيرهم قريبة من كلام السهيلي تركت ذكرها ؛ لأنها لم تقدم جديدا ، فهي نقل عن السهيلي.

(١)درة التنزيل وغرة التأويل ١٠٧٥/١

الموضع الثالث: تقديم الغفور على الرحيم .

من المواضع التي تشابهت في نظمها في كتاب الله ــ تعالى ــ اجتماع كلمتي"الغفور" و"الرحيم "في كثير من الفواصل القرآنية ، وتأتي كلمة "الغفور" مقدمة على "الرحيم" في كل المواضع إلا في موضع واحد من كتاب الله ــ تعالى ـ بتقديم " الرحيم " على " الغفور " كما سيأتي .

وقد تعرض السهيلي إلى سر هذا التقديم ، ثم بيّن سبب تلك المغايرة فقال : "وأما تقديم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [1]فهو أولى بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، ألا ترى لقوله ــ عليه السلام ــ لعمرو بن العاص – رضي الله عنه–:" أبعثُك وجهاً يسلمك الله تعالى ويغنمك، وأرغب لك رغبة من المال "[2].فهذا من

---

(١) لم يذكر السهيلي مواضع لما اجتمع فيه اللفظان وقدم فيه الغفور وهي كثيرة منها : قوله :﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ يوسف، وقوله :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ القصص ، وقوله : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر ، وقوله :﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ الشورى، وقوله : ٨﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ الأحقاف.

(٢)جزء من حديث شريف وتمامه:"قال عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمْرُو اشْدُدْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، وَثِيَابَكَ، وَأْتِنِي» فَفَعَلْتُ فَجِئْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ الْبَصَرَ وَصَوَّبَهُ، وَقَالَ: «يَا عَمْرُو، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ وَجْهًا، فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ زَعبَةً صَالِحَةً» ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ

الترتيب البديع، بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب، والعطية الأولى من التقدم بالطبع، والثانية من التقدم بالسبب."[1]

علل السهيلي سر تقديم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأنه مما قُدِّم فيه اللفظ بالطبع ؛ وهذا الكلام يحتاج أن أبيّن أمورا:

الأوّل : الرجل قال وأما تقديم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو أولى بالطبع ؛ ولم يذكر في أي موضع من تلك المواضع ؛ مما يعني أن هذا أصل عنده في كل موضع اجتمع فيه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ مع ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وقدّم فيه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ ، و لو لم يكن هذا أصلا في التقديم عنده لنص على بعض الشواهد دون بعض ؛ غير أن سكوته يعني تعميم هذا السر على كل الشواهد .

أقول : وفي ذلك نظر ؛ حيث إنه يقتضي أن نعمم هذا السر على كل المواضع دون دراسة وافية لكل تلك المواضع ، ويا ليت الرجل تعرض لهذا الشواهد كلها حتى يكون الحكم قائما على بينة وبرهان ، ولا يعنى هذا فساد ما ذهب إليه الرجل ؛ بل إن تعليله التقديم بأنه مما قدم فيه بالطبع ؛ حيث المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة تعليل مقبول جدا ؛ وإنما ذكرت من باب أهمية دراسة متشابه النظم بضم الشيء إلى نظيره ، ثم يدرس دراسة وافية ، يكون الحكم فيها أقرب للصواب

إِنِّي لَمْ أُسْلِمْ رَغْبَةً فِي الْمَالِ، إِنَّمَا أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ، وَالْكَيْنُونَةِ مَعَكَ، قَالَ: «يَا عَمْرُو، نَعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ، لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» ينظر مسند الإمام أحمد ٣٣٧/٢٧

(١)نتائج الفكر ٢٧١

الثاني : ذكر السهيلي أن التقديم فيما سبق إنما كان بالطبع ؛ ولم يشر ماذا يعني الطبع عنده ؛ حتى يتسنى للقارئ أن يدرك سر التقديم ، والطبع كما جاء عند أهل اللغة بداية صنعة الشيء ؛ يقول أبو منصور الأزهري :" والطَبْع: ابتداءُ صَنْعَة الشَّيْء. تَقول: طَبَعْتُ اللَبِن طَبْعاً وطَبَعْتُ السَّيْف طَبْعاً والطَبَّاع: الَّذِي يَأْخُذ الحديدة فيطَبَعُها ويُسَوّيها إمّا سِكّيناً وإمّا سَيْفا وَإِمَّا سِناناً.."[1]؛ يفهم من هذا أن الترتيب الذي ورد عليه اللفظان السابقان هو الترتيب الطبيعي ؛ بمعنى أنه الأصل الذي يجب أن يأتي عليه الكلام ، ولا يعدل عنه المتكلم إلا لعلة ما ،كما جاء في سورة "سبأ" ، وتعليل السهيلي بأن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة تقدم على الغنيمة هو تفسير لمعنى قدم للطبع ، فالطبع يقتضي تقديم ما يفيد السلامة على ما يفيد الغنيمة .

الثالث : هذا الكلام يقتضي أن نفرق بين " المغفرة" و " الرحمة " ؛ وقد جاء في لسان العرب :" الغَفُورُ الغَفّارُ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَهُمَا مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ وَمَعْنَاهُمَا السَّاتِرُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُتَجَاوِزُ عَنْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ. يُقَالُ: اللهمَّ اغْفِرْ لَنَا مَغْفرة وغَفْراً وغُفْراناً، وَإِنَّكَ أَنت الغَفُور الغَفّار يَا أَهل المَغْفِرة. وأَصل الغَفْرِ التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ. غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ أَي سَتَرَهَا؛..."[2]، وعليه تكون المغفرة مقدمة على الرحمة ؛ فالمغفرة ستر للذنوب ، والرحمة تأتي بعد هذا .

ذكرت فيما سبق أن السهيلي بيّن سر تقديم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ؛ وأنه مما قدم فيه اللفظ بالطبع ، فهذا أصل في هذين

(١)تهذيب اللغة : طبع .

(٢)لسان العرب :غفر.

اللفظين ، ولا يعدل عنه إلا لعلة ، فإذا قدم "﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ كان ذلك لنكتة ، وقد بيّن السهيلي علة تقديمها فقال :"وأما قوله:﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ في (سبأ) ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، إما بالفضل والكمال، وإما بالطبع، لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله تعالى: ﴿ فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾.وكقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فافتتح بالعموم، الذي هو متقدم بالطبع على الخصوص."(١)

وحتى يُفْهم كلام السهيلي على الوجه الصواب علينا أن نأتي بسياقات اجتمع فيه﴿ٱلْغَفُورُ ﴾ مع﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وقدم فيه الغفور ؛ لندرك سر تقديم ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ عند السهيلي . والمتتبع

الذكر الحكيم يجد كل موضع اجتمعت فيه المغفرة مع الرحمة تقدم فيه المغفره؛ كقوله :﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ يوسف، وقوله :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ القصص ، وقوله :﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر.

المتأمل تلك السياقات ونظيرها مما قُدِّمت فيه المغفرة يجد أمرا مشتركا يجمعها كلها ؛ وهو أن المكلف سبق ذكرٌ له ؛ وحيث ذكر المكلف ذكرت المغفرة معه ؛ فهي تلزمه وتخصه ، يحتاج إليها في كل موضع

(١)نتائج الفكر ٢٧١

ذكرت فيه المغفرة ؛ ولما كان الحال كذلك لزم تقديم المغفرة في الذكر على الرحمة .

وإذا تاملت آية " سبأ ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ تجد الأمر مختلفا ؛ حيث لم يسبق للمكلف المحتاج للمغفرة ذكرٌ ؛ وإنما ذكر حديث عن سعة علم الله ـ تعالى ـ الذي يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وهذا أمر عام يشمل المكلفين وغيرهم ؛ فهو قريب من باب تقديم العموم على الخصوص ؛ وتقديم العموم على الخصوص أصل من أصول التقديم ، على حد تعبير السهيلي السابق .وتبعه في ذلك الزركشي ؛ حيث نقل الكلام بفصه ونصه دون زيادة .[1]

وللسيوطي كلام آخر غير كلام السهيلي ، ولعلها المرة الأولى التي يذهب فيها غير مذهبه ؛ وعنده جاءت تلك الفاصلة في سورة " سبأ" مراعاة لخاتمة سورة الأحزاب ؛ حيث يقول في حديثه عن مطلع سورة " سبأ" :" ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها: وهو أن تلك لما ختمت بقوله: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الأحزاب: ٧٣ افتتحت هذه بأن له ما في السماوات وما في الأرض، وهذا الوصف لائق بذلك الحكم؛ فإن الملك العام والقدرة التامة يقتضيان ذلك.وخاتمة سورة الأحزاب:﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾، وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ: ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ "[2]

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣/٢٤٩

(٢) أسرار ترتيب القرآن ١٢٤

مفاد كلام السيوطي أن وجه الارتباط بين سورة " سبأ" و" الأحزاب " أن الأحزاب ختمت بالحديث عن تعذيب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وتوبته تعالى على المؤمنين والمؤمنات؛ وهذا يقتضي الملك التام والقدرة المطلقة التي من شأنها أن تعذب وتغفر ؛ وهذا الذي أشارت إليه مطلع " سبأ" أن له ما في السموات والأرض .

أقول : هذا حسنٌ في بيان سر الترابط بين السورتين ؛ أما ربطه سر الفاصلة التي وردت في "سبأ ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ بأنه من باب مراعاة خاتمة الأحزاب ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فهذا في النفس شيء منه ؛ حيث إنه يقتضي أن الفاصلتين سواء ، وأن تقديم أحد اللفظين على الآخر كتأخيره ، وهذا لا يقول به قائل ، وقد وقفنا عند سر التغاير ، وأنه مما يقتضيه السياق ؛ ، ولو كان الأمران سواء لجاءت آية سبأ على نفس الطريقة التي جاءت في الذكر كله بتقدم المغفرة على الرحمة . وحتى تنسجم مع خاتمة الأحزاب ، فيأتي الكلام بين السورتين على وتيرة واحدة ؛ فيكون هذا سرا للسيوطي في وجه ارتباط السورتين.

أما الفخر الرازي فلم يقدم فرقا جوهريا لتقديم أحد اللفظين على بعض ؛ وعنده أن الرحمة أوسع من المغفرة ؛ تأتي مقدمة تارة ، ومؤخرة أخرى ؛ حيث قال :"وَلَمَّا كَانَتِ الرَّحْمَةُ وَاسِعَةً تُوجَدُ قَبْلَ الْمَغْفِرَةِ وبعدها ذكرها قبلها وبعدها."[1] .

ويرد عليه بما رُد به على السيوطي من قبل ؛ فلو كانت المغايرة من أجل أن الرحمة أوسع من المغفرة فتقدم وتؤخر لكان تقديمها على المغفرة

(١)السابق ٢٨/٩٧

في الذكر أكثر من تأخيرها ؛ والواقع غير هذا ؛ حيث لم تتقدم إلا في شاهد واحد كما سبق ، وهل من المعقول أن يتأخر أوسع المعنيين في كل مرة ؟! ، وعلى مذهبه لا يكون للمخالفة وجه إلا التفنن في كلام ، وهذا إن استقام لكلامنا ، فلا يستقيم لكتاب الله تعالى ، وقد بيّنت الدراسة أن المغايرة لها من الأسرار ما يشهد أنه تنزيل رب العالمين .

المسألة الرابعة : متشابه النظم في تعدية الفعل بـ"على" أو "الباء"

في حديث السهيلي عن التوكيد بالنفس والعين تعرض إلى لفظة "عين "إذا أضيفت لله ـ عز وجل ـ فقال :" اعلم أن العين إذا أضيفت إلى الباري – سبحانه – كقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ طه [1]فهي حقيقة لا مجاز، كما توهم أكثر الناس، لأنها صفة في معنى الرؤية والإدراك، وإنما المجاز في تسمية العضو بها، وكل شيء يوهم الكفر والتجسيم فلا يضاف إلى الباري حقيقة ولا مجازاً"[2].

ثم تعرض إلى مسائل لها صلة بمتشابه النظم ، والذي هو محل الدراسة ؛ ومما تعرض له السر في تعدية الفعل بحرف الجار ﴿ عَلَىٰ ﴾ في الآية السابقة ، وبين تعديته بالباء في شواهد مشابهة لنظم الآية السابقة.

يقول السهيلي :" ومن فوائد هذه المسألة أن يسأل عن المعنى الذي من أجله قال:﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ بحرف ﴿ عَلَىٰ ﴾.وقال في موضع آخر: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [3].وكذلك: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [4]

---

(١) من قوله ـ تعالى ـ :﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ طه

(٢) نتائج الفكر ٢٩٢

(٣) من قوله تعالى :﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ القمر

(٤) من قوله ـ تعالى . ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾هود

سؤال السهيلي بيّن ؛ حيث يسأل عن علة تعدية الفعل في الشاهد الأول بحرف ﴿ عَلَىٰ ﴾، ثم عدل عنه إلى الباء في الشاهدين الآخرين ، وهذا ملحظ دقيق منه ؛ فسياق الآيات متشابه إلى حد كبير ؛ ففي الأول حديث عن عناية الله ـ تعالى ـ لنبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ــ في مرحلة صعبة جدا ؛ فهو الرضيع الذي تحاول أمه أن تبعد به عن فرعون وجنده ، ظنا منها أن النجاة له بالبعد عنه، فيأمرها ــ عز وجل ــ بقذفه في البحر ؛ ليقف العقل عاجزا عن إدراك سر هذا الأمر ؛ ثم تأتي المفاجأة أن يذهب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ــ إلى قصر فرعون ، فأمه أرادت إخفاءه ، ويأبى الله ـ عز وجل ــ إلا ظهوره ، ويُربَّى في القصر على مرأى ومسمع من عدوه ، ويصير عدوه مصدر رعايته وأمنه ؛ لتذهب الأسباب بعيدا ، وتأتي معية الله له ؛ فتصنعه على عينه .

والشاهدان الآخران يدوران في فلك الشاهد الأول ؛ من الحديث عن عظيم لطف الله ـ عز وجل ـ وأن كل شيء تحت إمرته ، وقيد سلطانه، إن شاء أجراه وإن شاء أمسكه ، فالشيء الذي غابت أسباب نجاته تأتي نجاته من حيث لا تدري ، ومن اجتمعت عليه أسباب الشقاء، تلاشت كلها أمام لطف الله فيصنعه على عينه .

هذا وقد بحثت كثيرا فلم أجد ــ فيما أعلم ــ أحدا من أهل العلم تعرض إلى هذه النكتة غير السهيلي ، فكلامه أُنف لم يسبق إليه ؛حيث قال :" والفرق بين الموضعين أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفياً وإبداء ما كان مكتوما؛ فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يُغَذون ويصنعون سراً، فلما أراد الله أن يُصْنع موسى ويُغَذي ويُرَبَّي على حال أمن وظهور أمر، لا تحت خوف واستسرار، دخلت ﴿ عَلَىٰ ﴾ في اللفظ تنبيها على

المعنى؛ لأنها تعطى معنى الاستعلاء ؛ والاستعلاء ظهور وإبداء، فكأنه يقول سبحانه: ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة.وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، فإنه إنما يريد: برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم."(١)

لله درُّ هذا الرجل ؛ فلا أعلم كيف هُدِي إلى هذا القول ؟! ولعل في قوله . عز وجل . :﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ إجابة على هذا .

وقد وقفت كثيرا عند قوله السهيلي فلم أجد شيئا أناقشه فيه ، فكلامه بيّن لا خفاء فيه ؛ فعلة دخول ﴿ عَلَىٰ ﴾ في الآية الأولى هي الدلالة على إظهار الأمر الخفي ، فإذا كان الطفل في هذا الزمان يُربّى ويُغذى سرا ؛ خوفا من فرعون وجنده ، فإن موسى ــ عليه السلام ــ سيربى ويغذَّى جهرا ، وهذا يأتي من طريق ﴿ عَلَىٰ ﴾ التي تلمح فيها معنى الظهور والبيان،كما أن الحرف ﴿ عَلَىٰ ﴾ من معانيه الاستعلاء ؛ وفي هذا دلالة على قمة تمكن موسى ــ عليه السلام ــ وهو لا يزال في قمة ضعفه ، فلم يسكت فرعون عنه فقط ، أو يعهد بتربيته لأحد من أتباعه ، وإنما حكمة ربنا ــ عز وجل ــ أن يمكن له منذ ولادته ، ويجعله ينشأ في قصر عدوه ، وتلمح هذا المعنى جليا في قوله ــ تعالى ــ :﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى

(١)نتائج الفكر ٢٩٥

ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القصص.

أما في الشاهدين الآخرين :﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ و ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فهو حديث عن عناية الله ورعايته ، لكن ليس هناك شيء خفي يُراد إظهاره ؛ كما كان في الحديث عن موسى . عليه السلام . ففي الأول المراد إظهار ما أرادوا إخفاءه ، وفي الآخرين ليس فيه هذا المعنى.

هذا وقد أشرت فيما سبق إلى أنه لم يشر أحد من أهل العلم لتلك اللمحة التي أشار إليها السهيلي ، فمنهم من سكت ، ومنهم من نقل قول السهيلي بفصه ونصه ؛ منهم ابن القيم ، وكان كثير النقل عن السهيلي، كما سبقت الإشارة في أكثر من موضع ، فقد نقل الكلام السابق ثم زاد لطيفة في بيان الفرق بين النظمين فقال:"ولم يتعرض . رحمه الله تعالى .[1] لوجه الإفراد هناك والجمع هنا، وهو من ألطف معاني الآية ؛ والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ طه ، فاقتضى هذا الاختصاص الاختصاص الآخر في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص وأما قوله تعالى:﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسى على عينه سبحانه وتعالى واصطناعه إياه لنفسه وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به

(١) يعني : السهيلي.

ملائكته كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ القيامة وقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ يوسف: ٣ ونظائره فتأمله."(١)

نكتة طيبة تعرض لها ابن القيم ؛ فالشاهد الأول جاءت كلمة ﴿عَيْنِيٓ﴾ بالإفراد ؛ لما فيه من مزيد اختصاص من الله ـ عزوجل ـ لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ ، فهو أمر خُصّ به ، فهي إضافة تخصيص ، أما في الشاهدين الآخرين فليس فيهما إشارة إلى هذا المعنى الدقيق.

هذا وللبقاعي ـ رحمه الله ـ كلام قريب من قول السهيلي السابق ؛ إذ يقول:"... أي مستعلياً على حافظيك ،غير مستخفى في تربيتك من أحد ، ولا مخوف عليك منه، وأنا حافظ لك حفظ من يلاحظ الشيء بعينه لا يغيب عنها، فكان كل ما أردته، فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع، فلما لم تقبل واحدة منهن بالغ في الطلب، كل ذلك إمضاء لأمري وإيقاف لأمره به نفسه لا بغيره ليزداد العجب من إحكام السبب ."(٢)

(١) بدائع الفوائد ٦/٢

(٢)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢٨٨/١٢

المسألة الخامسة : متشابه النظم في اختيار جمع على جمع

في حديث السهيلي عن التقديم تناول كثيرا من الأمور، منها ما له صلة بمتشابه النظم ، وقد سبقت الإشارة إلى شيء منه ، ثم تعرض إلى قوله . تعالى . :" ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ الحج ، ولفت النظر إلى أمور طيبة في هذه الآية ، وغيرها مما تشابه نظمها ، وبيانها فيما يأتي .

أول ما يلفت الانتباه في الآية أنك ترى مخالفة في صيغة الجمع بين ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ﴾ و ﴿ ٱلسُّجُودِ ﴾ ؛ حيث جمع راكع على "رُكّع " وساجد على "سُجُود " ، ولم يأت بالجمع على صيغة واحدة فيقول : "رُكّع سُجَّد "، ويكون موافقا لما جاء في سورة الفتح ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ، أو يقول : ركوع سجود ، وإنما عدل عن ذلك إلى ما جاء عليه النظم الشريف ؛ يقول السهيلي :"فإن قيل: فلم قال: ﴿ ٱلسُّجُودِ ﴾ على وزن فعول، ولم يقل السُّجَّد كما قال ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ﴾ ، وكما قال في آية أخرى: ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ؟وما الحكمة في جمع ساجد على سجود، ولم يجمع راكع على ركوع ؟"[1]

سؤال السهيلي يشمل أمرين أشرت إليهما في السطور السابقة ؛ أولهما: مخالفة الجمع للجمع في النظم الواحد ، والثاني : مخالفته للنظم المشابه له في سورة الفتح ، وأجاب السهيلي عن سؤاله السابق فقال : "فالجواب: أن السجود – في أصل موضوعه – عبارة عن الفعل، وهو في معنى الخشوع والخضوع، وهو يتناول السجود الظاهر والباطن، ولو قال: "

(١)نتائج الفكر ٢٧٤

السُّجَّد " جمع ساجد لم يتناول إلا المعنى الظاهر.وكذلك الرُّكَّع، ألا تراه يقول: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ : يعني رؤية العين، وهي لا تتعلق إلا بالظاهر، والمقصود هاهنا الركوع الظاهر لعطفه على ما قبله مما يراد به قصد البيت، والبيت لا يتوجه إليه إلا بالعمل الظاهر، وأما الخشوع والخضوع الدي يتناوله لفظ الركوع، دون لفظ الركع فليس مشروطاً بالتوجه إلى البيت.

وأما السجود فمن حيث أنبأ عن المعنى الباطن، جعل وصفاً للركع ومتمماً لمعناه، إذ لا يصح الركوع الظاهر إلا بالسجود الباطن، ومن حيث تناول لفظه أيضاً السجود الظاهر الذي يشترط فيه التوجه إلى البيت، حسن انتظامه أيضاً بما قبله، مما هو معطوف على الطائفين الدين ذكرهم بذكر البيت، فمن لحظ هذه المعاني بقلبه، وتدبر هذا النظم البديع بلُبّه، ترفع في معرفة الإعجاز عن التقليد، وأبصر بعين اليقين أنه تنزيل من حكيم حميد."(١)

لله درُّ هذا الرجل ؛ فقد أُلهم هذا الجواب إلهاما ؛ ولا أظن أحدا ـ فيما أعلم ـ سبق إلى هذا غير السهيلي .

وأبدا ببيان تعليله سر جمع ساجد على "سُجُود " وكان يمكن جمعه على " سُجَّد " دون مخالفة الجمع الذي جاء قبله ، ولتكون موافقة لنظم سورة الفتح كما بينت.إن سر المخالفة يكمن في أن السجود في أصل وضعه يشمل أمرين ؛ عمل الجسد الظاهر ، وخضوع القلب الباطن ، وهو أمرخفي لا يُرى ، ولما كان الركوع مما يُرى عدل عن جمع ساجد على "

(١)نتائج الفكر ٢٧٤، ٢٧٥

سُجَّد " حتى لا يكون المراد سجود الجسد فقط ؛ فيكون الكلام قد شمل خضوع الظاهر والباطن ، ولا يقبل ركوع ظاهر إلاّ إذا قُبِل الخضوع الباطن ، والدليل على أن الصيغة التي عدل إليها تشمل خضوع الباطن لا الظاهر قوله ـ تعالى ـ ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾،فهذا مما تراه العين ، والرؤية لا تتعلق إلا بالظاهر؛ لهذا جمع ساجد على ﴿ سُجَّدًا ﴾ ؛ وهذا هو سر مخالفة الجمع بين السورتين، وفي كلٍ حديث عن السجود .

وللزركشي ـ رحمه الله ـ كلام قريب من كلام السهيلي ؛ إذ يقول :"هَلَّا قِيلَ السُّجَّدُ كَمَا قِيلَ الرُّكَّعُ وَكَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ وَالرُّكُوعُ قَبْلَ السُّجُودِ! وَالْجَوَابُ: أَنَّ السُّجُودَ يُطْلَقُ عَلَى وَضْعِ الْجَبْهَةِ بِالْأَرْضِ وَعَلَى الْخُشُوعِ فَلَوْ قال: السّجّد لَمْ يَتَنَاوَلْ إِلَّا الْمَعْنَى الظَّاهِرَ وَمِنْهُ ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾وَهُوَ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ وَرُؤْيَةُ الْعَيْنِ لَا تَتَعَلَّقُ إِلَّا بِالظَّاهِرِ فَقُصِدَ بِذَلِكَ الرَّمْزُ إِلَى السُّجُودِ الْمَعْنَوِيّ وَالصُّورِيّ بِخِلَافِ الرُّكُوعِ فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي أَعْمَالِ الظَّاهِرِ الَّتِي يُشْتَرَطُ فِيهَا الْبَيْتُ كَمَا فِي الطَّوَافِ وَالْقِيَامِ الْمُتَقَدِّمِ دُونَ أَعْمَالِ الْقَلْبِ فَجُعِلَ السُّجُودُ وَصْفًا لِلرُّكُوعِ وَتَتْمِيمًا لَهُ لِأَنَّ الْخُشُوعَ رُوحُ الصَّلَاةِ وَسِرُّهَا الَّذِي شُرِعَتْ لَهُ."(١)

كلام الزركشي خرج من مشكاة كلام السهيلي ؛ فليس فيه جديد ، وإنما صِيغ على نحو يفهم منه أنه كلام جديد ، وما هو إلا رشفة من نهر السهيلي .

وما وجدت أحدا بعد السهيلي أضاف جديدا يذكر؛ فمنهم من نقل كلامه وغيّر في صياغته كما فعل الزركشي ؛ غير أن الشيخ محمد الأمين

(١)السابق ٣٥٠/٣٥١

الخضري . رحمه الله . ، أشار إلى سر جديد لم يشر إليه السهيلي أو الزركشي .

فإذا كان السهيلي نظر إلى سر المخالفة من ناحية معنوية يقتضيها السياق ، فإن الشيخ الخضري . رحمه الله . نظر إليها من جهة التناسب اللفظي ؛ وهو من الأهمية بمكان ، لا يقل عن الجانب الذي أشار إليه السهيلي ؛ يقول الشيخ الخضري:" ومما أوثر فيه التناسب اللفظي بين الصيغ المجاورة حينا ، والفواصل حينا آخر ، ما نراه من استعمال القرآن لصيغتي الكثرة " سُجَّد " و" سُجُود " فهما قد تساويا في عدد حروفهما ، وفي دلالتهما على الكثرة ، فكان القرآن يختار إحداهما لقرب مناسبتها للفاصلة تارة ، كما في قوله . تعالى . " ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، فقد ترك التناسب مع الصيغة المجاورة " الركع " بالعدول عن " السجد " إلى ما عليه التلاوة ؛ مراعاة لتناسب الفواصل ، إذ الفاصلة قبلها وبعدها مبنية على المد ﴿ أَلِيمٍ ﴾ و﴿ عَمِيقٍ ﴾ فكانت ﴿ ٱلسُّجُودِ ﴾ بما فيها من المد قبل الدال أليق بتلاؤم الفواصل ، وهو أشد طلبا للتناسب من الصيغة المجاورة .وحين لم تكن الصيغة فاصلة روعي فيها تناسبها لجارتها ، كما في قوله . تعالى . ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾الفتح: ٢٩ .فكان للتناسب بين الجمعين ﴿ رُكَّعًا ﴾و﴿ سُجَّدًا ﴾، والجمع قبلهما : ﴿ أَشِدَّآءُ ﴾و﴿ رُحَمَآءُ ﴾، من أسر

الإيقاع بالجرس واللفظ مثل ما لهما من التناسب بين المعاني بما يشهد لجلال اللفظ والمعنى في النظم الحكيم ."[1]

كلام الشيخ يكتب بذوب التبر لا بالحبر ؛ فقد بيّن أنه ترك التناسب مع الصيغة المجاورة " الركع " بالعدول عنه إلى ما عليه التلاوة ؛ مراعاة لتناسب الفواصل ، إذ الفاصلة قبلها وبعدها مبنية على المد ؛ فالفاصلة قبلها خُتمت بـ ﴿أَلِيمٍ﴾ والتي بعدها خُتِمت بقوله :﴿عَمِيقٍ﴾، فلو راعى التناسب مع الصيغة التي قبلها لجمع "ساجد " على "سُجَّد "؛ فقيل " الركع السجد " ؛ فعدل عن هذا إلى ما عليه النظم حتي يتأتى التوافق بين الفواصل ، وهو من الأهمية بمكان ، وإن شئت فأقرأ الآيات على النحو الذي عدل عنه الذكر فقل : "الركع السُّجّد " فلن تجد الأريحية والتوافق اللفظي الذي تشعر به إذا ما قرأتها بما جاء عليه النظم ، وكذلك الحال لآية سورة الفتح ؛ جمع ساجد على "سُجّد" حتى يحافظ على الجرس الصوتي بتناسبها مع الجمع الذي قبلها.

أقول : ما قاله السهيلي يضاف إلى ما قاله الشيخ الخضري يظهر لنا بلاغة القرآن الكريم في هذا الموضع من متشابه النظم.

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ١٨٨

المسألة السادسة: متشابه النظم في التعريف والتنكير

جعل السهيلي في كتابه بابا عنوانه :" مسألة في بدل النكرة من المعرفة " ؛ تحدث فيه عن أسرار النظم في الآيتين السادسة والسابعة من سورة الفاتحة ، وتعرض لمسألة في متشابه النظم ؛ وهي

سر تعريف ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ في سورة الفاتحة، وتنكيره في مواضع متشابهة ؛ حيث قال ": ما فائدة تعريف ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ الفاتحة بالألف واللام، وهلَّا أخبر بمجرد اللفظ دونهما، كما قال:﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ ﴾ الشورى، وكما قال: ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ ﴾ الفتح: "[1]

الاختلاف بين النظمين بيّنٌ؛ ففي كلٍ حديث عن الهداية إلى الصراط المستقيم ، ثم جاءت المخالفة بتعريفه في سياق سورة "الفاتحة" وتنكيره في سياق سورتي "الشورى "و"الفتح" ؛ وهو ما يدعو للبحث عن سر تلك المخالفة ، وقد بيّنها السهيلي فقال :"وأما تعريف ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ بالألف واللام؛ فإن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره؛ ألا ترى قولك: جالس فقيها أو عالما، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم؟ ولا: أكلت طيباً، كقولك: أكلت الطيب؟ ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام:" أنت الحق ووعدك الحق "، ثم قال: " ولقاؤك حق والجنة حق، والنار حق "[2]، فلم يدخل" الألف واللام" على الأسماء

---

(١) نتائج الفكر ٣٠٠

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في باب: "التهجد بالليل " ومسلم في باب :"الدعاء في صلاة الليل ".

المُحْدَثَة، وأدخلها على اسم الباري – سبحانه وتعالى – وما هو صفة له، وهو القول والوعد.

فإذا ثبت هذا فلو قال: " صراطاً مستقيماً " لكان الداعي إنما يطلب الهداية على صراط مستقيم على الإطلاق، وقد علم أنه على صراط مستقيم وهو الإسلام، فإنما يطلب ما هو أقوى من طريقته التي هو عليها في علمه؛ لأن كل فريق من المسلمين مستقصر لنفسه في العمل، وراغبٌ إلى ربه في التوبة والهداية إلى الأفضل، حتى ينتهي الأمر إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – فيقولها ."[1]

الأصل الذى بنى عليه السهيلي كلامه أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف أفادت أن هذا الاسم جدير باتصافه بتلك الصفة من غيره ؛ فكان اتصافه بها على جهة الثبوت والدوام ، فهي ملازمة له لا تنفك عنه ، ففرق بين قولك : أكلت طيبا وبين أكلت الطيب ؛ ففي كلٍ أكلٌ للطيب ؛ غير أن التعريف في الثاني أفاد أن وصف الطعام بالطيب قائم به لا يزول عنه، وهو الجدير بأن يوصف بالطيب.

وأكد السهيلي كلامه بقوله . صلى الله عليه وسلم . :" أنت الحق ووعدك الحق "، ولقاؤك حق والجنة حق، والنار حق "؛ فلما كان الحديث عن الله . تعالى . وذاته جاء بالحق معرفة ؛ لإفادة أنها أمور ثابتة لا تنفك ولا تزول عن الموصوف ، فهو المستحق لهذا الاسم على جهة الحقيقة ، أما الجنة والنار ، فهي أمور محدثة ، وقد علم المؤمن بقاءها من الخبر الصادق ، وقد أفدت هذا المعنى من السهيلي نفسه في كتابه " الروض

(١) نتائج الفكر ٣٠٢

الأنف " ؛ حيث قال :""قَالَ عَلَيْهِ السّلَامُ "أَنْتَ الْحَقّ" بِالْأَلِفِ وَاللّامِ أَيْ الْمُسْتَحِقّ لِهَذَا الِاسْمِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَقَوْلُك الْحَقّ ؛ لِأَنّ قَوْلَهُ قَدِيمٌ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدُ وَوَعْدُك الْحَقّ كَذَلِكَ لِأَنّ وَعْدَهُ كَلَامُهُ هَذَا مُقْتَضَى الْأَلِفِ وَاللّامِ ثُمّ قَالَ وَالْجَنّةُ حَقّ، وَالنّارُ حَقّ بِغَيْرِ أَلِفٍ وَلَامٍ وَلِقَاؤُك حَقّ كَذَلِكَ لِأَنّ هَذِهِ أُمُورٌ مُحْدَثَاتٌ وَالْمُحْدَثُ لَا يَجِبُ لَهُ الْبَقَاءُ مِنْ جِهَةِ ذَاتِهِ وَإِنّمَا عَلِمْنَا بَقَاءَهَا مِنْ جِهَةِ الْخَبَرِ الصّادِقِ الّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخُلْفُ لَا مِنْ جِهَةِ اسْتِحَالَةِ الْبَقَاءِ عَلَيْهَا، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَى الْقَدِيمِ – سُبْحَانَهُ – الّذِي هُوَ الْحَقّ..."(١)

وبتطبيق هذا على متشابه النظم الذي جاء بتعريف ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ وتنكيره يتبين أن تعريفه فيه دلالة على طلبهم الهداية إلى الصراط الأكمل الذي لا يمكن أن يعتريه نقص أو زيغ عنه ، ويعجبني كلام السهيلي في فرضه الوجه الآخر للنظم ؛ وهو أن تقول : اهدنا صرطا مستقيما ؛ لكان الحال أن طالب الهداية للصراط المستقيم ، إنما يطلب وفق علمه ، فهو يطلب صراطا مستقيما وفق علمه وفقهه ؛ وهذا وإن كان حسنا، لكنه عرضة لأن يعتريه النقصان ؛ حيث إنه جاء لما يقتضيه علم الداعي ، وهذا لا يتفق وصراط الله المستقيم ، أما التعريف فإنه يميل بك إلى جهة علم الله . عز وجل . وكأن الداعي يسأل ربه أن يهديه الصرط الجدير بتسميته صراطا ؛ فهو الذي رضيه الله لنا ؛ ومثل هذا الصراط هو الجدير بان يكون صراطا مستقيما .

ثم انتقل السهيلي إلى الجانب الآخر من النظم ؛ وهو بيان سر التنكير في الشاهدين الآخرين فقال :" فإن قيل: فقد قال تعالى لنبيه –

(١) الروض الأنف ٣/٢٢٠

صلى الله عليه وسلم -: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وقد كان على الصراط الأقوم، فضلاً عن صراط مستقيم على الإطلاق؟ فالجواب: أن هذه الآية نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه، وكان الله ورسوله أعلم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلم يرد صراطاً مستقيماً في الدين، وإنما أراد صراطاً مستقيماً في الرأي والحرب والمكيدة. وقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراطٍ مستقيم. ولو قال في هذا الموطن: " الصراط المستقيم "، لجعل للكفر والضلال حظاً من الاستقامة؛ إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصوفة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر، أو ما قرن به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه."(١)

سر التنكير في آية الفتح أن الصراط هنا مختلف عن الصراط في سورة الفاتحة ؛ فصراط الفاتحة هو صراط الدين ، وهو الذي سبق الإشارة إليه في بيان سر التعريف ، أما الصراط هنا فالأمر فيه مختلف ؛ حيث نزلت في صلح الحديبية ، فكان المراد صراطا مستقيما في الحرب والرأي والمكيدة ، فأفاد التنكير معنى التعظيم .

وللتمييز بين صراط وصراط جاء به نكرة في سورة الشورى ؛ إذ لو جاء به معرفة لكان للكافرين حظ من الاستقامة ؛ حيث إن المعنى المسوق له الكلام هو بيان أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرجهم من ظلام الكفر إلى صراط مستقيم ؛ مما يعني أنهم لم يكن لهم أدنى حظ من

(١) نتائج الفكر ٣٠٤

الاستقامة ، وأن ما كانوا عليه لم يكن في شيء من الصواب ، ولو عُرِّف الصراط هنا ، لفهم أنهم على هدى لكنه ليس كاملا ، فيثبت بذلك أن لهم صراطا لكنه ليس الصراط الأمثل ، وهذا غير مراد ، بل المراد بيان بطلان ما كانوا عليه بالكلية، ثم جاء الرسول ليأخذ بأيديهم إلى طريق الحق ، فإن أرادوا بعد إيمانهم الصراط المستقيم الجدير بتسميته صراطا ، والذي بلغ في الاستقامة الغاية ، أخذوا يسألون ربهم بعد إيمانه ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

هذا ثم أشار السهيلي إلى أمر آخر ؛ هو سر العدول عن لفظ الصراط إلى لفظ " طريق " في سورة الأحقاف ؛ حيث يقول :" ولِمَ ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ. وذكر في سورة الأحقاف بلفظ الطريق، فقال: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ الأحقاف: ؟[1]

فكان جوابه :" وأما ذكره بلفظ "الطريق" في سورة الأحقاف خاصة، فلأنه انتظم بقوله:سبحانه: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ الأحقاف: .وإنما أراد أنه سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله، وأنه ليس بِبِدْعٍ، كما قال في السورة نفسها[2]، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ " الطريق "، لأنه " فعيل " بمعنى " مفعول ".أي: إنه مطروق مَشَت عليه الرسل والأنبياء قبل، وليس في المواضع الأُخر ما يقتضي هذا المعنى.فكان لفظ

(١) السابق ٣٠٠

(٢) السابق ٣٠٤

الصـــراط بهـــا أولـــى، لأنـــه أمـــدح مـــن جهـــة الاشـــتقاق والوزن كما تقدم."[1]

مفاد كلامه أنه عدل عن الصراط إلى الطريق مراعاة لقوله . تعالى . ﴿ سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾، فما سمعوه له أصل عندهم ، فهو سبيل مطروق من قبل ، فكان التعبير بلفظ الطريق أولى من الصراط.

(١) إشارة إلى الآية التاسعة من سورة الأحقاف ؛ وهي قوله . تعالى . ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح الخلق أجمعين ؛ سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، وبعد:

فقد عايشت مسائل متشابه النظم عند أبي القاسم السهيلي في كتابه " نتائج الفكر " وقد أسفرت الدراسة عن نتائج مهمة في الدرس البلاغي ؛منها:

١. بينت الدراسة أن النحو ليس بمنأى عن الدراسة البلاغية ؛ فكتاب " نتائج الفكر " كتاب نحوٍ في المقام الأول ، ومع ذلك تعرض صاحبه لكثير من مسائل البلاغة ؛ مما يؤكد شدة الترابط بين العلمين .

٢. أظهرت هذه الدراسة أن السهيلي له آراء أُنف لم يُسبق إليها، وهي جديرة بالبحث ، وأن أخْذَه ممن سبق يعد قليلا جدا مقارنة بمن أخذوا عنه ؛ ففي مسائل متشابه النظم تأثر بعبد القاهر والإسكافي ، أما من أخذ عنه فهم كُثر ؛ منهم الزركشي والسيوطي وابن القيم والبقاعي ...

٣. بيّن البحث أن السهيلي كان موفقا في كثير من أقواله ، غير أن له أقوالا كانت موضع نقد؛ من ذلك حديثه عن أنه إذا طال الحاجز بين الفعل وفاعله كان تذكيره أولى ؛ فأثبت البحث غير ذلك ، مستشهدا على هذا بنصوص من الذكر الحكيم .

٤. تعميم الحكم على متشابه النظم ليس من الدقة بمكان ؛ وأن الأولى أن يدرس كل نص دراسة وافية ، بعد ذلك نقف على فروق في دلالة النظم.

٥- يدعو البحث المشتغلين بالدرس البلاغي أن يوجهوا نظرهم قِبل كتب النحو ؛ ففيها من الخير ما لا يقل عن أمهات كتب البلاغة ؛ فالسهيلي عَلَمٌ من أعلام النحو المشهورين ، وكتبه جديرة بأن يتجه إليها الباحثون المشتغلون بأمور البلاغة .

وأخيرا أدعو الباحثين للبحث والتنقيب للوصول إلى تفسير تصح نسبته للسهيلي ؛ فهذه الدراسة كشفت الحس البلاغي الذي يتمتع به السهيلي ، وأكدت أن لو ظهر له تفسير فلن يقل عن الكشاف وغيره مما شغلت ببلاغة الذكر الحكيم .

أسأل الله . تعالى . أن يسامحني على ما وقعت فيه من خطأ أو تقصير ، وصل اللهم وسلم على الحبيب محمد وآله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

١. أسباب نزول القرآن، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، الناشر: دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٢. أسرار ترتيب القرآن ، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

٣. أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، المحقق: عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض.

٤. إنباه الرواة على أنباه النحاة، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.

٥ـ الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٦. الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن ، الطبعة : الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م،مطبعة الحسين الإسلامية .

٧ـ الأصلان في علوم القرآن ، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة: الرابعة ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٨ـ الأعلام ، الناشر: دار العلم للملايين ، الطبعة: الخامسة عشرة ٢٠٠٢ م.

٩. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين ، الناشر: المكتبة العصرية ، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٠. بدائع الفوائد ، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١١. البحر المحيط في التفسير ، المحقق: صدقي محمد جميل ، الناشر: دار الفكر – بيروت.

١٢ـ البرهان في علوم القرآن ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي .

١٣. تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) ، المحقق: أحمد يوسف الدقاق ، الناشر: دار الثقافة العربية.

١٤. تهذيب اللغة ، المحقق: محمد عوض مرعب ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

١٥. التكملة لكتاب الصلة ، المحقق: عبد السلام الهراس ، الناشر: دار الفكر للطباعة – لبنان : ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٦. الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٧. الجنى الداني في حروف المعاني، المحقق: د فخر الدين قباوة - الأستاذ محمد نديم فاضل

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م.

١٨ـ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

١٩ـ درة التنزيل وغرة التأويل ن دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٠ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب،الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

٢١ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، المحقق: عمر عبد السلام السلامي،الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٢ـ شرح ديوان الحماسة ، المحقق: غريد الشيخ ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م.

٢٣. صحيح البخاري ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر،الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٤ـ الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، المحقق: حسن موسى الشاعر، الناشر: دار البشير – عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٢٥ـ القواعد النحوية تأصيلا وتفصيلا ، عبد الرحمن محمد النحو ، الناشر : دار الكتب العلمية ، ٢٠١٥م.

٢٦. كتاب العين ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٧. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٢٨ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢٩. لسان العرب ، الناشر: دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

٣٠. مختار الصحاح ، المحقق: يوسف الشيخ محمد ، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا ، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٣١. مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

٣٢ـ : مشكل إعراب القرآن . المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥.

٣٣. معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة ، الطبعة: الأولى.

٣٤. معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٣٥ـ معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.

٣٦. معجم الفروق اللغوية ، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي ، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٧. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٣٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة.

٣٩ـ المحكم والمحيط الأعظم ، المحقق: عبد الحميد هنداوي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م

٤٠ـ المخصص ، المحقق: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٤١ـ مفاتيح الغيب ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٤٢ـ نتائج الفكر في النحو ، المحقق: دكتور /محمد إبراهيم البنا ، الناشر : دار الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

٤٣ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٤ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر– بيروت – لبنان .

٤٥ـ نكت الهميان في نكت العميان، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م.

٤٦ـ النبأ العظيم ، الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع ، الطبعة : ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

محتويات البحث

مقدمة .

تمهيد.

المطلب الأول : التعريف بالسهيلي وكتابه .

المطلب الثاني :المقصود بمتشابه النظم القرآني وأهمية دراسته .

المسألة الأولى : متشابه النظم بالحذف والإثبات .

الموضع الأول : إثبات حرف الجر وحذفه مع الفعل " غفر ".

الموضع الثاني : إثبات تاء التأنيث وحذفها من الفعل .

الموضع الأول: إثبات التاء وحذفها من الفعل " أخذ ".

الموضع الثاني :إثبات التاء وحذفها من الفعل"حق".

الموضع الثالث: إثبات الباء وحذفها من الفعل "سبّح ".

المسألة الثانية : متشابه النظم في الإفراد والجمع .

إفراد السماء وجمعها.

المسألة الثالثة : متشابه النظم بالتقديم والتأخير .

الموضع الأول: تقديم " الجن" على " الإنس" وعكسه .

الموضع الثاني : تقديم السماء على الأرض وعكسه .

الموضع الثالث : تقديم الغفور على الرحيم .

المسألة الرابعة : متشابه النظم في تعدية الفعل بـــ" على " أو " الباء".

المسألة الخامسة : متشابه النظم في اختيار جمع على جمع .

المسألة السادسة : متشابه النظم في التعريف والتنكير .

الخاتمة .

ثبت المصادر والمراجع.

محتويات البحث.